مجلة جامعة جازان للعلوم الإنسانية
Jazan University Journal of Human Sciences (JUJHS)

نظرية المعرفة في الفلسفة الوضعية وأثرها على الميتافيزيقا والأخلاق

السّيد محمد عبد الله
قسم الدراسات الإسلامية، كلية الشريعة والقانون، جامعة جازان، المملكة العربية السعودية

The Theory of Knowledge in Positivism and Its Impact on Metaphysics and Ethics

Alsaid Mohammed Abdullah
Department of Islamic Studies, College of Sharia and Law, Jazan University, Kingdom of Saudi Arabia

DOI	RECEIVED الاستلام	EDIT التعديل	ACCEPTED القبول
https://doi.org/10.37575/h/edu/22002	2024/10/04	2025/01/03	2025/01/05
NO. OF PAGES عدد الصفحات	YEAR سنة العدد	VOLUME رقم المجلد	ISSUE رقم العدد
28	2024	3	13

الملخص:

يهدف البحث إلى بيان تهافت نظرية المعرفة في الفلسفة الوضعية التي تحصر الوجود في المحسوس، وترى أن المعرفة اليقينية لا تتأتى للإنسان إلا من خلال التجربة، وأنه لا وجود لعالم الغيب، وتعمل على تحطيم مبادئ الدين والميتافيزيقا، وإبعادهما عن توجيه الإنسان من خلال قانون الحالات الثلاث، وتحاول أن تقوم مقام الدين في رسم منهج للإنسان يسير عليه حتى يصل للسعادة من خلال بناء الأخلاق على أسس تجريبية، ووضع قوانين لعلم الاجتماع على غرار قوانين الطبيعة.

واستدعى البحث بيان نشأة الفلسفة الواقعية، وموقفها من الدين والأخلاق من خلال مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، اعتمادا على المنهج الاستقرائي التحليلي، والمنهج المقارن، والمنهج النقدي؛ باستقراء مبادئ الفلسفة الوضعية وتحليلها، ونقدها بميزان العقل والشرع الحنيف.

والبحث يثبت أن الإنسانية لم تبدأ بالشرك والوثنية، بل بدأت بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، وما الوثنيات إلا أعراض طارئة وأمراض عقلية متخلفة، كما يثبت البحث تعثر الفلسفة الوضعية وعجزها من الناحية الفكرية والعملية في توجيه الجماعة الإنسانية بدلا من الدين؛ حيث استحال وضع قوانين لسلوك الإنسان على غرار قوانين الطبيعة المادية.

الكلمات المفتاحية: المعرفة، الفلسفة الوضعية، كونت، الدين، الأخلاق.

Abstract

The current study aims to demonstrate the collapse of the theory of knowledge in positivist philosophy, which confined existence to the tangible, and declared that certain knowledge cannot be attained by man except through experience, and that there is no existence for the unseen world. It also worked to destroy the principles of religion and church metaphysics, to distance them from guiding man through the law of the three states, and tried to take the place of religion in drawing a method for man to follow until he reaches happiness by building ethics on experimental foundations, and establishing laws for sociology similar to the laws of nature. The research called for explaining the emergence of realistic philosophy, and its position on religion and ethics through an introduction, four chapters, and a conclusion, based on the analytical inductive method, the comparative method, and the critical method; by inducting and analyzing the principles of positivist philosophy and criticizing it with the balance of reason and the true Sharia.

The research proves that humanity did not begin with polytheism and paganism, but rather began with pure monotheism for God, Lord of the Worlds. Thus, the paganism is nothing but temporary symptoms and backward mental illnesses. The research also proves the stumbling of positivist philosophy and its inability, from an intellectual and practical perspective, to guide the human community instead of religion, as it is impossible to establish laws for human behavior similar to the laws of material nature.

Keywords: Knowledge, Positivism, Comte, Religion, Ethics.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله النبي العربي الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، **وبعد**

يعدّ البحث في نظرية المعرفة هو الشغل الشاغل للفلسفة الحديثة منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم، أو هو على الأقل أهم مشكلة تناولتها الفلسفة الحديثة والمعاصرة؛ لأنها في الحقيقة تمثل روحها وجسدها الأكبر، وتتناول نظرية المعرفة جميع المشكلات الناشئة عن العلاقة بين الذات المدرِكة والموضوع المُدرَك، بوصف أن المعرفة ثمرة هذه العلاقة، ومن هنا اتخذت نظرية المعرفة مكانا أوَّلِيا في الفلسفة بوصفها عتاد الفيلسوف في المباحث الفلسفية الأخرى.

مشكلة البحث: لقد ادعت المدرسة الحسية أن مصدر المعرفة هو التجربة الحسية، وأن وسيلة المعرفة هي الحس فقط، وأن الوجود ينحصر في المحسوس، وقد انبثق عن هذه المدرسة تيارات متعددة من أهمها تيار الفلسفة الوضعية التي لا تؤمن إلا بما تثبته العلوم

التجريبية، وتدعي أن الفكر الإنساني عاجز عن إدراك ما سوى الظواهر الحسية والوقائع التجريبية، وما بينها من علاقات وقوانين، وأهملت لأجل ذلك كل بحث في العلل والغايات، وأنكرت الإيمان بالغيب، وأبعدت الدين عن توجيه الإنسان، وأرادت أن تبني الأخلاق والاجتماع على أسس مادية تجريبية؛ لتحل محل الدين في توجيه السلوك الإنساني.

أسئلة البحث: جاءت إشكالية البحث في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١) هل المعرفة ممكنة، وإذا كانت ممكنة فما حدودها؟ وما هو مصدر المعرفة ووسيلتها في الفلسفة الوضعية؟

٢) هل يمكن حل المشكلات الاجتماعية والظواهر الأخلاقية بتطبيق المناهج المادية التجريبية البحتة على مبادئ علم الاجتماع وسائر العلوم الإنسانية؟

٣) هل نجحت الفلسفة الواقعية في إنشاء علم أخلاقي وضعي يمكن أن يحل محل الدين؟

٤) هل يستطيع علم الاجتماع المادي أن يقوم بتوجيه الإنسان بدلا من الدين؟

إن الماديين في العصر الحديث يعدون أنفسهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول، ولمبادئ التفكير، بينما عندما ينكرون ما عدا المادة، يرجعون إلى أقدم العصور تخلفا، فيقولون إن الوجود هو المحسوس، وكل ما بينهم وبين البدائيين من فرق أنهم استعانوا على السمع والإبصار بوسائل العلم الحديث [١]، ولهذا استخرت الله تعالى في دراسة هذا الموضوع، وذلك لما يأتي:

- أردت بيان أوجه القصور في الفلسفة الوضعية فيما يتعلق بوسائل المعرفة؛ وذلك أن دراسة الفكر الوضعي يرتبط بنظرية المعرفة ارتباطا وثيقا.
- بيان تعثر الفلسفة الواقعية في إنشاء علم الأخلاق الوضعي، الذي ادعوا أنه يمكن أن يحل محل الدين في توجيه سلوك الإنسان.
- بيان أن علم الاجتماع المادي عاجز من الناحية الفكرية والعملية في توجيه الجماعة الإنسانية بدلا من الدين؛ لأنه عجز عن وضع قوانين لسلوك الإنسان على غرار قوانين الطبيعة، ولا يمكن إخضاع الظواهر الاجتماعية للقياس الدقيق؛ لعدم ثبات الظواهر الاجتماعية.

منهج البحث: وقد اتبعتُ في البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث يقوم الباحث باستقراء المسألة في الكتب الفلسفية، ويقوم بتصنيفها، وتحليل الأفكار الرئيسة الواردة فيها، وردها إلى مكوناتها الأساسية وعناصرها الأولى، حتى يمكن الكشف عن تفاصيل العلاقات والروابط الدقيقة فيما بينها، والتي من خلالها يمكن أن يتبين مدى تأثير الفلسفة المادية عند المدرسة الوضعية في الميتافيزيقا والأخلاق، والمنهج المقارن: حيث قمت بالمقارنة بين الفلسفة المادية وما جاء في الشرع الحنيف، والمنهج النقدي: حيث قمت في هذه الدراسة بتقييم وجهات النظر المختلفة الواردة فيها، من حيث الحكم عليها بالصحة أو الخطأ، اعتمادا على عدة أدوات أساسية منها: مدى مطابقة الأحكام والتصورات لحقيقتها الموضوعية التي هي عليها في الأمر نفسه، ومدى استلزام الأدلة أو المقدمات للمدلولات أو النتائج التي تدعي ترتبها عليها، ومدى الاتساق الداخلي والخلو عن التناقض بين مكونات أو عناصر البناء الفكري الذي تطرحه كل وجهة نظر، كما قمت بترجمة مختصرة لبعض الفرق والطوائف، وثبت لتاريخ الوفاة لكل علم من الأعلام، ملتزما بقواعد النشر في المجلة.

---

[١] العقاد، عباس محمود. "الله" ص ٥٥.

وأما عن خطة البحث: فقد جاء– بحمد الله وتوفيقه– مكونا من مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، أما المقدمة: فتتناول أهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومنهج البحث، وخطته.

المبحث الأول: نشأة الفلسفة الواقعية.

المبحث الثاني: نظرية المعرفة عند فلاسفة المدرسة الوضعية (الواقعية).

المبحث الثالث: موقف الفلسفة الواقعية من الدين.

المبحث الرابع: موقف الفلسفة الواقعية من الأخلاق.

وأما الخاتمة ففيها أهم النتائج المستخلصة من البحث، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول: نشأة الفلسفة الواقعية.

منذ أن تبنى الإمبراطور الروماني «قسطنطين بن هيلانة ٣٣٧م» عقيدة النصرانية وهي تعاني من تعقيدات الفكر الفلسفي والوثني، وتعالت التساؤلات عن التثليث، والتجسيد، والخطيئة الأولى، والتعميد[١]، والعشاء الرباني[٢]، والقيامة وغيرها، ولما جاءت العصور الوسطى كانت الكثلكة[٣] تُعَبِّر عن البابوية[٤] في توجيه سلوك الإنسان وتنظيم المجتمع، وفي فهمه للطبيعة، وبدأت تعلو شوكة رجالها، ومكَّن لهذا ضعف الحكومة القائمة حتى جاهر الأساقفة بإعلاء كلمة رئيسهم الديني على سلطة الملك، وتهيأ للسلطات الدينية نفوذ دنيوي مكنهم من المطالبة بفرض التربية التي يتعلمها الطلاب في مدارسهم، ومصادرة الكتب التي لا تساير نزعاتهم، وإقصاء المعلمين المارقين من وظائفهم، ونفي المفكرين الذين يخطئهم التوفيق في إرضائهم[٥]، واعتمدت الكنيسة مذهب «أرسطو ٣٢٢ ق م» العقلي التقليدي، واقتنعت به أداةً للبحث في كل شيء حتى في الدين نفسه[٦]، وعدّته الأساس الصالح لنيل المعرفة اليقينية الصحيحة التي لا شك فيها، واعتنقت الكنيسة بعض آراء أرسطو و«بطليموس ١٨٠م» في الطبيعة والفلك، وجعلتها هي الموافقة لنصوص الكتاب المقدس، وما عداها يعدّ مخالفا لها، وكانوا ينظرون إلى الإنجيل على أنه فوق العقل، وله الكلمة الأخيرة فيما يرى العقل ويحكم[٧]، ولما جاء عصر النهضة الأوربية رأى فلاسفة النهضة أن الإنسان قادر على توجيه نفسه، وليس في حاجة إلى سلطة خارجية، وذلك لما يأتي:

---

[١] التعميد عند النصارى: فريضة مقدسة يشار فيها الغسل بالماء باسم الأب والابن والروح القدس إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح، وهي ختم عهد النعمة كما كان الختان في الشريعة الموسوية، والمعمودية تدل على اعترافهم العلني بإيمانهم وطاعتهم للأب والابن والروح القدس كإلههم ومعبودهم الوحيد، ولا يجوز أن يعمدوا إلا إذا اعترفوا بإيمانهم جهارا أمام كنيسة الله"، ينظر أبو زهرة، محمد. "محاضرات في النصرانية" ص ١١٥.

[٢] العشاء الرباني عند النصارى: فريضة رسمها المسيح في الليلة التي أسلم فيها الجسد، ويستعمل في هذه الفريضة قليل من الخبز والخمر، فيأخذ كل من المؤمنين لقمة من الخبز، وقليلاً من الخمر على المثال الذي رسمه المسيح تذكاراً لموته، فالخبز يشير إلى جسده المكسور، والخمر إلى دمه المسفوك، فالمؤمنون الذين يشترطون في هذا العشاء يقبلون المسيح بالإيمان كالخبز الذي نزل من السماء وكل من يأكل منه لا يجوع، ولكنهم لا يقبلونه طعاماً جسدياً بل طعاماً روحياً لحياة روحية لأجل النمو في النعمة والإيمان، ينظر أبو زهرة "محاضرات في النصرانية" ص ١١٥.

[٣] الكثلكة: كلمة لاتينية، تعني الجامعة أو الشمولية، وسمّت الكنيسةُ الكاثوليكيةُ نفسها بذلك لادِّعائها أنها أم الكنائس ومعلمتها، ينظر: معجم الإيمان المسيحي: ص ٣٩٠.

[٤] البابوية: نظام كنسي ركز السلطة العليا باسم الله في يد البابا، وقصر حق تفسير الكتاب المقدس على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى، وسوى الاعتبار بين نص الكتاب المقدس ومفاهيم الكنيسة الكاثوليكية، وجعل عقيدة التثليث عقيدة أصيلة في المسيحية، كما جعل الاعتراف بالخطأ وصكوك الغفران من رسوم العبادة، ينظر البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث ص ٢٤٩.

[٥] العقاد، عباس محمود. "عقائد المفكرين" ص ٢٥، ٢٤٩، والبهي، محمد، خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر ص ٥٥، والمسير، محمد. "المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي" ص ٢٤٦.

[٦] يوترو، إيميل، العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص ٢١، والطويل، توفيق. "قصة النزاع بين الدين والفلسفة" ص ٢٧١.

[٧] البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث ص ٢٥١، وغلاب، محمد. المعرفة عند مفكري المسلمين ص ٦٣.

أولا: ظهور الفلسفة الاسمية اللفظية (Nominalism) التي تَعدُّ المعاني المجردة غير موضوعية، وأن المفاهيم الكلية التي نطلقها على الأجناس والأنواع مجرد أسماء وألفاظ جوفاء[١]، وهذه الفلسفة تفتح الطريق للشك في العقل والمعقولات، وعلاقاتها الضرورية فتتبدد الميتافيزيقا؛ لأنها دعت إلى أن تفكير العقل فلسفة خالصة مقطوعة الصلة بالدين، وآمنت بالدين إيمانا دون أي سند من العقل، واشتغلوا بالعلم التجريبي، وتحرروا من سلطان «أرسطو ٣٢٢ ق م» في العلم والفلسفة معا، وأقاموا الميكانيكا والفلك على أصول جديدة، بل مدت الفلسفة الاسمية يد النقد إلى أصول الاجتماع، فأيدت الأباطرة في تمردهم على سلطة البابوية، ونادت بوجوب الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، وقضت في أذهان كثير من الناس على جهود الفلسفة المدرسية[٢] التي أحاطوا بها الدين المسيحي[٣]، لأن لفظ «الله» عندهم لا يدل على نوع، ولا على جنس، ولا على شخص محدد يدرك بالحس؛ لأن مدلول لفظ الجلالة لا يصدق على كثيرين حتى يكون جنسا أو نوعا، ثم هو لا يدل على شخص يشار إليه في الحس والمشاهدة ويقال عنه: هذا هو «الله»، وإن كان يدل على فرد لا شريك له، وهو إذن خارج عن بحث الألفاظ في بحوث المنطق، ولذلك يعقب أصحاب الفلسفة الاسمية فيما يتصل بالله بأن مجال «الله» هو الإيمان والاعتقاد، وليس البحث العقلي الإنساني[٤].

ثانيا: النزعة الإنسانية الفردية التي نقلت إلى أوروبا من الأدبين اليوناني واللاتيني القديمين بواسطة الإيطاليين، وهذه النزعة هزَّت الكاثوليكية، فكانت حركة الإصلاح التي قام بها البروتستانت. وساعد على تأصيل النزعة الفردية، والاستقلالية عن الله، أن الكشوف التي وصل إليها «كولومبوس ١٥٠٦م» و«فاسكو دي جاما ١٥٢٤م» أتت بمعلومات تفيد بأنه يوجد أقوام لا يدينون بالدين المسيحي، ومع ذلك لهم أديان وأخلاق، فظهر على آثار ذلك الديانة الطبيعية والأخلاق الطبيعية، ومن هنا تكونت نظرة إلى الإنسان مؤداها: الاكتفاء بما في الطبيعة، والاستغناء عن جميع الأمور الميتافيزيقية، وسميت هذه النزعة بالنزعة الإنسانية[٥].

وساعد اختراع الطباعة على تعميم العلم، وسهولة الحصول عليه، وتحديد النصوص وحفظها من عبث العابثين، ومن نتائج إذاعة المخطوطات الهيلينية أن اطلع المثقفون على النصوص الأصلية، ووازنوا بينها وبين الخلط الذي ملأ به اليهود والسريان والعرب والمدرسيون بطون الكتب، وظل معتبرا ضمن الحقائق، حتى كشفت النصوص الصحيحة بطلانه[٦]، فتأسست نهضة حقيقتها العودة إلى الثقافة القديمة، والثورة على ما استحدث العصر الوسيط من أدب وفلسفة وفن وعلم ودين، وأسباب الحياة السياسية والاقتصادية[٧]، وهذه الثقافة القديمة كانت تنضح بالوثنية، فانتشرت الوثنية في الأفكار والأخلاق، فسميت هذه النزعة بالإنسانية،

---

[١] البهي، محمد، "الفكر الإسلامي الحديث" ص ٢٣٠، وكرم، يوسف، "تاريخ الفلسفة الأوربية" ص ١٣.

[٢] وهي التي نشأت ونمت في المدارس الكنسية، والجامعات الأوروبيّة، بين القرن العاشر، والقرن السابع عشر للميلاد، وأهم الصفات التي يتميز بها هذا التعليم ارتباطه بعلم اللاهوت، وتوفيقه بين الوحي والعقل، واعتماده في البحث على طرق القياس البرهاني، وعلى تفسير النصوص القديمة، ولا سيما نصوص أرسطو ويعدّ القديس توما الاكويني أشهر ممثلي هذا التعليم، ينظر: صليبا، جميل. " المعجم الفلسفي" ٢/ ٣٥٩.

[٣] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط" ص ١٩٧.

[٤] البهي، محمد "الفكر الإسلامي الحديث" ص ٢٣٢، وسبنلة "الفكر الألماني" ص٩.

[٥] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة"، ص ٦، وعتمان، محمود "الفكر المادي الحديث" ص ٢٩ والمسير، محمد "المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي" ص ٢٤٦.

[٦] غلاب، محمد. "المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة" ص ١٠.

[٧] مدكور، إبراهيم. "دروس في الفلسفة" ص ٢٤٩، وعتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث" ص ٢٨.

وسميت الآداب القديمة بالإنسانيات[١]، وكان من نتائج هذه النزعة ما يأتي:

١. أن الإنسان يجب أن ينظر إليه في ذاته، لا لأي اعتبار آخر.
٢. أن الكتاب المقدس يجب أن يدرس ليفهم فهما حرا، لا ليرى مقدار قربه من النصوص المقدسة أو بعده عنها.
٣. العمل على إقامة فلسفة خصيمة للدين، والحملة على الفلسفة المدرسية بالتهكم على لغتها وبحوثها وطريقة استدلالها، والحملة على العصر الوسيط، ورميه بالجهل والغباوة والبربرية[٢].
٤. تسرب المذهب الإنساني إلى المسيحية نفسها، وعمل على تقويضها من الداخل، فما كانت البروتستانتية في البدء إلا احتجاجًا على الغفرانات، ودعوى إصلاح في الإدارة الكنسية وطرق العبادة، ثم زعمت أن الدين يقوم على الفهم الخاص للكتاب المقدس، وعلى التجربة الشخصية، بغير حاجة إلى سلطة تحدد معاني الكتاب[٣].

ثالثا: تأثر الحضارة الأوربية الحديثة بالحضارة الإسلامية في الأندلس وخلال الحروب الصليبية، ومن خلال رحلاتهم للشرق طلبا للعلم أو سعيا للتجارة، أو لزيارة الأماكن المقدسة، فالحضارة الأوروبية في القرن العشرين ترجع إلى ثقافة المسلمين في الأندلس، وإلى الثقافة التي عاد بها الصليبيون من الديار الإسلامية، ولو أن موكب الفتوحات الإسلامية واصل المسيرة المؤمنة، وعبر الأندلس إلى فرنسا في موقعة بواتييه، أو بلاط الشهداء لجاءت النهضة الأوربية قبل بعثها بسبعة قرون، ولما سجل التاريخ تلك الصحائف السوداء في تاريخ أوروبا على مذابح الصراع الطائفي، ومحاكم التفتيش، وجرائم الصليبيين النكراء[٤].

فالحركة العلمية الفلسفية التي أثارها المسلمون وجهت أنظار المسيحيين نحو الدراسات القديمة، وبالرغم من معارضتهم لفلسفة الإسلام وعلمائه تتلمذوا لهم في موضوعات كثيرة، وتأثروا بهم في نواح مختلفة، «فروجر بيكون ١٢٩٤ م» نهل من الموارد العربية، وأفاد من ثقافة الأندلس العلمية، و«وليم الأوكامي ١٣٤٩ م» الذي دعى إلى الإصلاح الديني قبل «مارتن لوثر ١٥٤٦م» بنحو قرنين قرأ كتب العرب، وأخذ عنهم، وليس غريبا أن تكون إيطاليا مسقط رأس النهضة الأوروبية الحديثة، وفيها أنشئت جامعتا بولونيا وبادوا اللتان كانتا تتدارس فيهما تعاليم «ابن رشد ٥٩٥ هـ» إلى أوائل القرن السابع عشر[٥].

ويؤكد كثير من الباحثين أن «مارتن لوثر ١٥٤٦م» في حركته الإصلاحية ضد تعاليم الشيطان -كما سماها- كان متأثراً بما قرأه للفلاسفة العرب والعلماء المسلمين من آراء في الدين والعقيدة والوحي، فحارب صكوك الغفران، ونظر إليها كوسائل للرق والعبودية، وحارب البابوية، وجعل السلطة الوحيدة في المسيحية للكتاب المقدس، وطالب بالحرية في تفسيره، ونادى بالنظر الحر، وفصل عرى الصلة بين الفرد والسلطة الدينية، والعمل على استقلال الفكر[٦]، ونستطيع أن نؤكد بأن حركة الفصل بين الدين والدولة التي أُعلنت في الثورة الفرنسية كانت

---

[١] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة"، ص ٥، ٦، وسبنلة "الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه" ص ٥٢.

[٢] عتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث" ص ٢٩.

[٣] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة"، ص ٧.

[٤] المسير، محمد. "المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي" ص ٢٤٤، والعقاد، عباس. "دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية" ص ١٨٨، وموسى، محمد يوسف. "ابن رشد الفيلسوف" ص ١٠٤.

[٥] مدكور، إبراهيم. "دروس في الفلسفة" ص ٢٤٨، وبور كهارت "حضارة عصر النهضة في إيطاليا" ١٩٧/١، وطرابيشي، جورج. "معجم الفلاسفة" ص ٥٨٨.

[٦] غلاب، محمد. "المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة" ص ١١، وفروخ، عمر."أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية" ص ١٣ وعبد الحليم "العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف" ص ٤٠٥.

وليد الحركات الفكرية العنيفة التي سادت أوروبا ثلاثة قرون أو أكثر، وكان لحضارتنا فضل في إيقاد جذوتها عن طريق الحروب الصليبية والأندلس[١].

رابعا: العناية الشديدة بالعلم الآلي وتطبيقاته لتحقيق رخاء الإنسان الذي سيطر بعد ذلك على الفلسفة الحديثة، حيث كان الأمراء الإيطاليون يطلبون أسباب القوة والترف، فشجعوا الفنون والصناعات، واندفع العلماء إلى الابتكار والإتقان، وتنافست المدن حتى غالت في الاستئثار بالمخترعات والآلات الجديدة، وازداد سلطان الإنسان على الأرض، واتسعت السماء أمام ناظريه بفضل اختراع التلسكوب، فأحس من الكبرياء والطموح ما لم يحسه من قبل، والتقى هذا الإحساس في نفسه بما أوحى به المذهب الإنساني في الأدب والدين، وبما نفخ فيه النضال السياسي من إحساس قوي بالاستقلال، فشعر كأنه رب نفسه وليس فوقه رب[٢]، فاستقلت الفلسفات عن الدين، وكانت هناك فلسفات إلحادية، وأخرى تشيد بالعلم الآلي وتحصر مجالها على قدر مجاله، وثالثة تتحدث عن الروحانية، والمسيحية عندها لا تعني سوى مجرد عاطفة دينية، أو تجتمع هذه الوجهات المختلفة في بعض المذاهب مع تفاوت بينها؛ وتظل الأجيال إلى الآن حائرة مترددة، تعتنق المذاهب وتخلعها الواحد بعد الآخر، وتستبدل نظامًا من الحياة بنظام[٣].

خامسا: حماية الأمراء الإيطاليين وبعض أجلاّء ورؤساء الكنيسة الممتازين المثقفين للعلماء ورجال الفكر، وتشجيعهم إياهم بمالهم وجاههم على البحث الحر والإنتاج المستقل، وذلك مثل «ليون العاشر ١٥٢١ م» فقد بلغ من تشجيعه للعلم وللحركة الفكرية وحمايته إياها حدا دفع المؤرخين إلى أن ينسبوا العصر إلى اسمه، كما شجع على ذلك ملك فرنسا «فرانسوا الأول ١٥٤٧ م»[٤]، ولهذا كان لإيطاليا دور بارز في ظهور النهضة الأوربية قبل غيرها حيث إن المنتجات الإغريقية كانت مترجمة إلى اللغة اللاتينية وهي لغة إيطاليا، والعلماء الذين طردوا من القسطنطينية قد استوطنوا في تلك الأصقاع، والآثار الإغريقية كانت في إيطاليا أبقى منها في بلد آخر، والحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في تلك البلاد كانت تقتضي أن تكون هي مبعث النهضة[٥].

سادسا: الكشوف الكبرى التي قلبت التاريخ والجغرافيا القديمين رأسا على عقب، وأسست امبراطوريات استعمارية، وتولدت معها علاقات عالمية أدت إلى نتائج اقتصادية واجتماعية وفكرية خطيرة، فقد أتاحت لمفكري ذلك العصر أن يروا فريقا كبيرا من البشر يعتنقون ديانات غير دياناتهم، ويسيرون طبق تقاليد متباينة مع تقاليدهم، فأحدث ذلك احتكاكات فكرية كان لها أثرها[٦].

وقد كانت علوم الطبيعة والفلك مرتبطة بتوجيه الكنيسة في العصور الوسطى، ولما انفصلت عنها واتخذت التجربة والملاحظة منهجا لها، وجعلت الظواهر الطبيعية موضوعها الأوحد، نشأ عند ذلك الخلاف بينها وبين الكنيسة[٧]، وتعقدت العلاقة بينهما بسبب **مشكلات خمسة**، وهي مركز الكون، وظهور القوانين الطبيعية المادية، ومذهب النشوء والارتقاء، وعلم المقارنة بين الأديان والعبادات، ومشكلة الشر، وذلك أن **«كوبرنيكس ١٥٤٣ م»** لما اكتشف مركز الأرض من المجموعة

---

[١] البهي، محمد. "الفكر الإسلامي الحديث" ص ٢٥٠، ومدكور "أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية" ص ١٦٣.

[٢] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة" ص ٧، وغلاب، محمد. "المذاهب الفلسفية العظمى" ص ١١.

[٣] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة" ص ٨، ومدكور إبراهيم، كرم، يوسف. "دروس في الفلسفة" ص ٢٥٠.

[٤] غلاب، محمد. المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة ص ٩.

[٥] غلاب، محمد. المذاهب الفلسفية العظمى ص ١٢ ومدكور إبراهيم، كرم، يوسف. "دروس في الفلسفة" ص ٢٥٠.

[٦] غلاب، محمد. المذاهب الفلسفية العظمى ص ١١، والمسير محمد "المجتمع المثالي " ص ٢٤٦.

[٧] ريشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية ص ٩٤، وغلاب، محمد. المذاهب الفلسفية العظمى ص ٢٤٦.

الشمسية أحدث صدمة عنيفة للذين اعتقدوا أن الأرض هي مركز الكون، فلما عرفوا أن الأرض لا تعدو أن تكون كوكبا صغيرا تابعا لشمس بين ألوف من الشموس التي تحوم في السماء فزعوا من هوان الأرض، ورجحت عندهم ظنون المصادفة والاتفاق، ثم جاء العلماء الطبيعيون فكشفوا قوانين الطبيعة المادية، وزعموا أنهم يفسرون بها كل شيء حتى الحياة، ثم جاء مذهب النشوء والارتقاء فألحق الإنسان بسائر الحيوان في نشأته وتطوره، وفهم البعض منهم أن تطور الإنسان من المادة الحية الأولى يبطل القول بالخلق، أما علم المقارنة بين الأديان والعبادات، فقد جمع المشابهات بين العبادات البدائية والعبادات المقررة في الديانات العليا، فاتخذ أصحاب المذاهب المادية من ذلك دليلا على تسلسل العبادات من أطوارها الأولى بين البدائيين بغير حاجة إلى الوحي والتنزيل، ومشكلة الشر قويت جدا في القرن العشرين؛ لتفاقم الشرور الناجمة من الحروب والفتن[١].

وجاء «**جاليليو ١٦٤٢م**» وتبنى المنهج التجريبي، واكتشف مجموعة من الكواكب، وأعلن أخطاء بطليموس و«أرسطو ٣٢٢ ق م» ، ورأى أنه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون الحاجة إلى تدخل قوة خارجية عنها، وكشف «**نيوتن** ١٧٢٧م» قانون الجاذبية، وكان له أثره في الفكر التجريبي، فوضع قانونا كليا استخرج منه نتائج متفقة مع التجربة، وأرسى لفكرة الحتمية العلمية الفيزيائية[٢]، ووصلت فكرة الثقة بالعلم الحديث واعتماد الإنسانية عليه وطلبه حل المشاكل الإنسانية من العلم والابتعاد عن الدين تماما إلى أن كانت السمة الغالبة على القرن التاسع عشر، ولم تفلح جهود الكنيسة في وقف تيار العلم، **فضغطت على العلماء بطريقة أفزعتهم**، وزادت في عنادهم وخروجهم عليها، وأنشأت محاكم التفتيش، واتخذت كل الوسائل لمطاردتهم، لكن هذا كله لم يوقف التيار الفكري الجديد، فقد حاز العلم على ثقة العقل الإنساني[٣].

وحاول «**ديكارت** ١٦٥٠م» حل المشكلة القائمة بين العلم والدين، ورأى أن لكل منهما مجاله الذي يختص به، فميدان العلم: الطبيعة، وموضوعه: استغلال القوى الطبيعية، وأدواته: الرياضة والتجربة، وميدان الدين: مصائر النفوس في العالم الآخر، ويقوم على اعتقادات معينة في غاية البساطة، وهي الله، وكماله، وأزليته، وافتقارنا إليه، واعتمادنا عليه، ولا صلة لهذه العقائد بدقائق اللاهوت المسيحي، وبناءً على هذا المبدأ يمكن أن ينمو كل منهما في إطاره الخاص به دون أن يصطدما، وهذا يقتضي أن تمحو من بينهما كل أسباب التنافس، وإن كان كل منهما يستطيع أن يجد في نفسه صديقا معينا على حل ما تعقد من مشكلات الوجود بقدر ما تسمح به طبيعته وظروفه، دون أن يكون الاتصال بالعلم سببا مشككا في عقيدة التدين، أو يكون التدين وصمة من وصمات الرجعية تلتصق بالعالِمِ[٤].

ويعتبر «**ديكارت** ١٦٥٠م» أول من حرر العقل من سلطان الحس، وهاجم المفاهيم الأرسطية ولم يحتفظ منها إلا باعتقادات بسيطة ضرورية، وأعلن أن الفكر يكفي نفسه بنفسه، فهو المقياس الوحيد للحقيقة، فقلب الوضع الطبيعي الذي يجعل العقل الإنساني تابعًا للحس ومحتاجاً إلى التعلم، وأقام الفردية[٥] على أساس فلسفي بعد أن كانت مجرد عصيان وتمرد، فكان أن هدم

---

[١] العقاد، عباس. عقائد المفكرين ص ٢٧، ٢٨.

[٢] بوترو، إميل. العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص ٢٩، والمسير، محمد. المجتمع المثالي ص ٢٤٩.

[٣] الطويل، توفيق. "قصة النزاع بين الدين والفلسفة " ص ٢٢٣، وعتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث " ص ٤٤.

[٤] بوترو، إميل. "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة " ص ٣٠، وغلاب محمد المعرفة عند مفكري المسلمين ص ١٠٣.

[٥] الفردية تحمل الشخص على أن يظن نفسه أهلًا للحكم على الأشياء بنفسه، وعلى أن يجعل من نفسه مركزًا تدور حوله الأسرة والمجتمع، فتورث الفوضى الخلقية والاجتماع ينظر: كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٨٧.

الميتافيزيقا القديمة، وأنتجت الميتافيزيقا التي أنشأها ديكارت نتائج ترتب عليها هدم الميتافيزيقا بالكلية؛ لأنه وضع فلسفة تؤيده وتحميه، وترفع الفردية من مستوى العاطفة والإرادة الغامضة إلى مستوى الحق والقانون، فوضع دستور الفكر الحديث[١].

ثم ظهرت المذاهب التجريبية التي تدعي أن معرفتنا مقصورة على التجربة الظاهرة والباطنة، ويتعين على الفلسفة أن تقنع بما يدرك بالملاحظة والاستقراء، وأن تعدل عن المسائل الميتافيزيقية وعن المناهج العقلية، وإذا كان «**لوك** ١٧٠٤م» يعتقد بفاعلية الذهن فإن فلاسفة من الإنجليز ينكرون هذه الفاعلية، ويفسرون الفكر كله بتداعي المعاني تداعيًا آليًّا[٢]، بل يرى «**لامتري** **١٧٥١**م» أن العالم لن يكون سعيدا إلا إذا أصبح الناس ملاحدة[٣].

وانتقل المذهب الحسي التجريبي إلى فرنسا في القرن الثامن عشر، واصطبغ بصبغة مادية واضحة، فضرب المذهب العقلي التقليدي ضربة قوية هزَّت أركانه؛ لأنه اتسم بسمات تختلف عنه، فرأى أن كل شيء في العقل البشري مكتسب، وأنه لا توجد أشياء فطرية أوليَّة في العقل، كما يتميز برفض المبادئ العامة والضرورية، أو المطلق منها على الأقل، ورأى أنصار التجريبية أن العقل مهمته تسجيل الانفعالات الآتية إليه من الخارج دون أن يكون له فعل إيجابي، فأدى ذلك إلى انهيار المذهب العقلي التقليدي، كما أدى في الوقت ذاته إلى عجز المذهب التجريبي عن تبرير المعرفة[٤].

وعندما جاء القرن الثامن عشر عاد النقد والشك في مبادئ الدين، واحتل العقل مركز السيادة، واتجه التفكير فيه إلى إخضاع الدين للعقل، وأعطى لنفسه الحق في نقد الدين، ورفض ما لا يتفق مع أحكامه، ورفض سلطة رجاله في توجيه النوع الإنساني بالنسبة لسلوك الأفراد وتنظيم المجتمع، والإشراف على اتجاهات الحياة، وما فيها من سياسة وقانون ودين، وعدّت الإنسانية هدف الحياة للجميع، وليس الله أو المجتمع الخاص، وتميز هذا العصر الفكري بما يأتي:

- نمو شعور العقل وإحساسه بنفسه، وبقدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية بعد أن يزيل عبودية الكنيسة وتعاليمها حتى لا تحجبه عن التخطيط الواضح لهذا المصير[٥].
- تحليل المعرفة ونقد العقل والدين والنظم الاجتماعية والسياسية [٦].
- الشجاعة والجرأة في إخضاع كل حدث تاريخي لامتحان العقل، وكذلك في تكوين الدولة، والجماعة، والاقتصاد، والقانون والدين والتربية على الأسس السليمة.
- الإيمان بتعاون جميع المصالح والمنافع، وبالأخوة الإنسانية، على أساس من هذه الثقافة العقلية وحدها، المستمرة في التزايد والنمو[٧].

وإذا كان العقل لم يفلح في تقليص نفوذ الكنيسة تماما، فجاء القرن التاسع عشر يتسم بسمة التركيب والبناء على اختلاف في الدواعي والمذاهب، واتسمت الفلسفة في النصف الأول بسمتين أساسيتين:

---

[١] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٨٧، وفال، جون. "الفلسفة الفرنسية " ص ١٠.

[٢] كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٥٠، وريشنباخ. "نشأة الفلسفة العلمية " ص ٨٠.

[٣] فال، جون. الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر ص ٥٤.

[٤] عتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث " ص ٥٣، وواصف، أمين. "أصول الفلسفة " ٦٧/٤، ٦٨.

[٥] البهي، محمد. "الفكر الإسلامي الحديث " ص ٢٥٣، وبوترو، إميل. "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة " ص ٣٩، وغلاب، محمد. "المعرفة عند مفكري المسلمين " ص ١٠٥.

[٦] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ١٥٣.

[٧] البهي. "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي" ص ٢٥٢.

الأولى هي الفلسفة الألمانية وتصدر عن «**كانط** ١٨٠٤م» الذي يرى أنه يجب على الميتافيزيقا أن تقنع بدورها الحقيقي، وبدلا من أن تحاول مد سلطان العلم إلى ما وراء التجربة الحسية، يكون حسبها أن تقف عند حدود المجربات التي هي حدود المقدرة البشرية، وبهذا الاتجاه تصبح الميتافيزيقا عملية منتجة لا نظرية مجردة، ولا يفوتها شيء مما هو ضروري للمعرفة أو للحياة، ومن العبث أن نجعل يقيننا بالحياة الأخرى هو الحامي لنا على التمسك بالفضيلة، أو أن نتخذ عدم قابلية النفس للفناء حافزا لنا على العمل أملا في جزاء الآخرة[١]، ولهذا قيل[٢] إن إيمان **كانط** ١٨٠٤م» يبطن إلحادا؛ لأن مذهبه أدى إلى ضرب المذهب العقلي التقليدي ضربة قوية قضت عليه، وأفلت اليقين والسببية الحتمية من بين يدي العلم، فأدى ذلك كله إلى اصطباغ المعرفة الإنسانية بعدم اليقين والإطلاق، وأصبح مطمح المعرفة الإنسانية هو الحصول على معرفة راجحة فقط[٣].

كما أن مذهب **كانط** ١٨٠٤م» من أهم المذاهب التي قوضت الميتافيزيقا بالمعنى المجرد، فادعى استحالة العلم الذي لا يستند إلى الحس، وزعم أن وجود الله وخلود الروح يعجز عنها العقل النظري، ويسلم بها العقل العملي، وقد علّق على ذلك «شوبنهور ١٨٦٠م» بقوله: "إن **كانط** زعزع اللاهوت القائم على العقل، ثم ترك اللاهوت الشعبي دون أن يمسه، لا، بل دعمه بوصفه عقيدة مبنية على الشعور الأخلاقي، فكأنه أدرك الخطأ الناجم من هدمه اللاهوت العقلي، فأسرع إلى اللاهوت الأخلاقي يستمد منه بعض الدعائم الواهنة المؤقتة عسى أن يظل البناء قائما حتى يتمكن من الهرب قبل أن تقع عليه الأنقاض"[٤].

والسمة الثانية هي الواقعية الفرنسية التي تعدّ التجربة والملاحظة هي المصدر الوحيد للمعرفة، وأما الفلسفة الإنجليزية فقد تنازعها التياران الألماني والفرنسي، ولكن الواقعية الفرنسية هي التي تغلبت على التفكير، وما أن أشرف النصف الأول من القرن التاسع عشر على نهايته، حتى كانت الفلسفة الغربية واقعية حسية مادية، وساد الحس كمصدر وحيد للمعرفة، وأخذ السلطة من الدين والعقل على السواء[٥].

المبحث الثاني: نظرية المعرفة عند فلاسفة المدرسة الوضعية (الواقعية).

المطلب الأول: مفهوم نظرية المعرفة وإمكانها.

تطلق نظرية المعرفة على هذا العلم الذي يبحث في ماهية المعرفة ومبادئها وأصولها ومنابعها وشروطها ووسائلها، وهي مجموعة المعاني والمعتقدات والأحكام والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة محاولات متكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به، ويمكن تلخيص الموضوعات الأساسية للمعرفة في إمكان المعرفة، وحدودها وهل هي يقينية أو ظنية؟؟ وما وسيلة المعرفة؟ وما هي طبيعة الشيء المعروف، وما هو المصدر والمنبع الذي أتت منه المعارف؟[٦].

وإذا كانت المعرفة علاقة بين ذات وموضوع، أي بين الشخص العارف وبين الشيء المعروف، فإن الفلسفة الواقعية تقوم بإرجاع كل معرفة إلى التجربة أو الواقع، فالعقل عندهم بمثابة صفحة بيضاء لم ينقش فيها حرف،

---

[١] غلاب، محمد. "المعرفة عند مفكري المسلمين" ص ١١١، وزاهر، رفقي. "أعلام الفلسفة الحديثة" ص ١١٥.

[٢] أمين أحمد، ومحمود، زكي نجيب. "قصة الفلسفة الحديثة" ص ٣٢٠.

[٣] مدكور، إبراهيم، وكرم، يوسف."دروس في تاريخ الفلسفة" ص ٤٦٤، والطويل، توفيق. "أسس الفلسفة" ص ١٩٢، وعتمان، محمود "الفكر المادي" ص ٥٧.

[٤] المسير، محمد. "المجتمع المثالي" ص ٣٥١، وأمين أحمد، ومحمود، زكي نجيب."قصة الفلسفة الحديثة" ص ٣٢٠.

[٥] البهي، محمد. "الفكر الإسلامي الحديث " ص ٢٦٧، وعتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث" ص ٦٣، ٦٤.

[٦] صالح، سعد. "قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية ص ٧٩.

ثم تتوالى عليه الصور وتنطبع فيه الحقائق الخارجية بحكم ممارسة الحياة، ومعايشة الأحياء دون أن يكون للعقل تأثير يذكر[١]، وذلك بخلاف مذهب الفلسفة العقلية الذي يرى أن العقل فعَّال، وهو الأصل الذي يصدر عنه كل علم حقيقي، وأما المذهب النقدي فيحاول الجمع بين المذهبين بتفسير المعرفة على أنها أمر لابد أن يجتمع فيه عنصر صوري يرجع إلى طبيعة العقل نفسه، وعنصر مادي يتمثل في المدركات الحسية[٢].

وإذا كانت المعرفة عند أصحاب هذ الفلسفات العقلية والتجريبية والنقدية ممكنة فإن دعاة فلسفة الشك يرون إنها غير ممكنة؛ استنادا إلى أن كل قضية تقبل السلب والإيجاب بقوة متعادلة[٣]، وقد ظهرت موجة الشك الأولى على يد المدرسة السوفسطائية وأخذت صورا كثيرة، فمنهم من يقول بعدم قدرة العقل على إصدار حكم ما بالإيجاب أو السلب؛ بناء على أن وسائل المعرفة لا تكفل اليقين[٤]، ومنهم من ينكر ثبوت الحقائق في ذاتها مدعيا أنها تابعة للاعتقاد، ومنهم من يرى أن الحقائق أوهام وخيالات؛ لتضارب الآراء واختلاف الأدلة وتباين النتائج[٥].

ومذهب الشك متناقض؛ لأن الشاك حين يدعي أنه ليست هناك معرفة فإنه يدعي أن دعواه معرفة من المعارف، كما أنه أزمة في حياة العقل يثير فيه ظلمات الحيرة ويبعث القلق في جوانب النفس، فيملؤها ضيقا ويأسا[٦].

المطلب الثاني: طبيعة المعرفة ومصادرها.

الحق أن طبيعة المعرفة لا يمكن الفصل فيها بين الذات والموضوع، فثمة موجودات واقعية مستقلة عن العقل المدرِك، ولكنها لا تمثل كل الحقيقة، إذ لا بد من الذات العاقلة المدرِكة التي تضفي على الموضوع عمل العقل، وتدخل محتوياته في محتويات الموضوع حتى يظهر في صورة أقرب ما تكون إلى الصواب في حدود الطاقة البشرية، ومن هنا كانت توجيهات القرآن الكريم بالنظر إلى ظواهر المادة وتحولاتها، ولا بد من العقل الذي يبلور ما تنقله إليه الحواس عن العالم المادي، فللأشياء حقائق ثابتة في الواقع والأمر نفسه بصرف النظر عن إدراك العقل أو عدم إدراكه لها، ومعرفتنا بالأشياء لا يلزم أن تكون صورة طبق الأصل لحقائق الأشياء في الواقع، ولكن ليس هناك ما يمنع في كثير من الأحيان من إدراك الأشياء على حقيقتها فهو أمر ممكن، ومطلوب من الإنسان أن يبذل قصارى جهده لإدراك الأشياء على حقيقتها، وبهذا يكون الفكر الإسلامي وسطا بين المثالية التي تدعي تبعية الأشياء للذات المُدرِكة، فالأشياء مجرد أفكار وتصورات في عقولنا، والواقعية التي ترى أن للأشياء وجودا خارجيا مستقلا عن القوى المدركة، وجميع أحوال العقل، وليست الأمور المدركة في التجربة سوى رموز في العقل، ولكنها رموز تدل على حقائق خارجية واقعية[٧]، ذلك أن المثالية تبتعد عن دنيا الواقع وتستخف بعالم الشهادة، وتحتمي بالذات العارفة مع أن عالم الشهادة حقيقة واقعة، وهو دليل على وجود الله ﷻ، وأما الواقعية فقد ردت العالم إلى المادة المحسوسة، وأنكرت عالم الغيب، وجعلت العقل مجرد مظهر من مظاهر المادة، لكن الاعتراف بالعالم المادي، والعالم الروحي هو

---

[١] رسل، برتراند. "الفلسفة الغربية " ص ١٧٨، وزاهر، رفقي. "أعلام الفلسفة الحديثة " ص ٧٩.

[٢] زقزوق، محمود، تمهيد للفلسفة، ص ١١٥، ومحمود، زكي نجيب. "نظرية المعرفة" ص ٧ وما يليها.

[٣] كرم، يوسف: تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٦٢، ومحمود زكي وزميله: قصة الفلسفة اليونانية ص ١٧٨، ومدكور، إبراهيم، وكرم، يوسف. "دروس في الفلسفة" ص ٧٥، ونعيم، محمد. حجازي، عوض الله. "في الفلسفة الإسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية" ص ٤١.

[٤] مطر، أميره. "الفلسفة اليونانية" ص ٣٥٤، وبدوي، عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني ص ٧١ وما بعدها.

[٥] ستيس، لوتر. "تاريخ الفلسفة اليونانية" ص ١٠٢، وبدوي، عبد الرحمن. "ربيع الفكر اليوناني" ص ١٧٨.

[٦] زقزوق، محمود حمدي، "تمهيد للفلسفة" ص ١٢٦، وزقزوق، محمود حمدي، "المنهج الفلسفي" ص ٧٠.

[٧] كولبه، أزفلد. "المدخل إلى الفلسفة" ص ٢٨٣، والطويل، توفيق. "أسس الفلسفة" ص ٢٤٩.

الذي يفسر لنا معنى العالم ويعطيه أسباب الوجود والحياة، فالمادة حقيقة واقعية، والروح حقيقة واقعية، والعلاقة بينهما هي علاقة الفاعل بالمفعول، ولا تلغي أحدهما لحساب الآخر[١].

وقد اختلف الفلاسفة في مصدر المعارف التصورية والتصديقية[٢]، هل هو الفطرة أم الاكتساب، وهل هو العقل أم التجربة، فذهبت الفلسفة العقلية إلى أن هناك مبادئ أوَّلية يسلم بها العقل، ومعرفتها تمتاز بالضرورة والصدق المطلق، فتضطر النفس إلى الإذعان إليها دون أن تطالب بدليل، كما تمتاز بإمكان تعميم الحكم على أفراد النوع كله، والمذهب العقلي يؤمن بعلاقة السببية، ويرى أن المعارف البشرية تتولد كل واحدة منها عن الأخرى حتى ينتهي الأمر إلى المعارف الأوَّلية التي لم تنشأ عن معارف سابقة يولد الإنسان مزودا بها بصورة فطرية، ولكنها تكون كامنة فيه بالقوة، حتى إذا ما بدأ وعيه وإدراكه بالوجود شيئا فشيئا تصبح مدركات بالفعل[٣].

وأما الفلسفات الحسية، ومنها الفلسفة الوضعية فهاجمت المذهب العقلي في أمنع معاقله عندما رفضت التسليم بالأفكار الفطرية، وردَّت المعرفة في جميع صورها إلى التجربة، ورفضت كل ما يتعلق بعالم الغيب، فالعقل صفحة بيضاء ليس فيها نقش سابق على التجربة، والتجربة هي التي تخط على هذه الصفحة سطورها، والأحكام العقلية تتغير بتغير الزمان والمكان وباختلاف الظروف والأحوال[٤]، أما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الحسية فلا وجود له عندهم، وبهذا تكون الميتافيزيقا مستحيلة[٥].

ومن المعلوم أن المنهج التجريبي ينحصر موضوعه ومجاله بالحسيات الظاهرة في الفلك، والأرض والطبيعة وغير ذلك من مجالات الحس، أما الأمور الغيبية فهي فوق متناول المنهج الحسي، وبالتالي فاستبعاد علماء التجربة المحدثين لوجود الله بهذه الشبهة، مصادرة على المطلوب؛ لأنه ليس من مجاله، ولا موضوعه، فهو إنما وجد لاختبار المحسوسات، ولا يصلح في غيرها، وحينما يتعدى مجاله يكون خطؤه محققا[٦]، كما أن المذهب التجريبي عندما جحد كل حقيقة عامة وضرورية كان يدمر قيمة المعارف كلها ومن بينها العلم التجريبي، ولهذا ذهب خصومه إلى أن الشك الارتيابي المذهبي ثمرة من ثمار المدرسة التجريبية، وتلك عظمى حجج السهام الحادة التي سددها «**كانط** ١٨٠٤م» إلى مذهب «هيوم ١٧٧٦م»[٧].

والإسلام يقف من وسائل المعرفة موقفا متميزا عن أي فلسفة ظهرت قديما أو حديثا، يتمثل ذلك في أن الإسلام يعترف بكل مصدر أو وسيلة من شأنها أن تؤدي إلى تحصيل المعرفة والعلم بأي أمر من الأمور النافعة للإنسانية، كما يجعل الإسلام لكل وسيلة من هذه الوسائل موضوعها المناسب الذي تعمل في إطاره، فالحس يختص بالماديات، والعقل يختص بما وراء المادة من

---

(١) صالح، سعد الدين السيد. "قضايا فلسفية" ص ١٢٦، ١٢٧.

(٢) الكاتبي، نجم الدين. "تحرير القواعد المنطقية شرح الرسالة الشمسية" ص ٧.

(٣) كلي رايت، وليم. "تاريخ الفلسفة الحديثة" ص ٩٧، وأمين أحمد، ومحمود، زكي نجيب. "قصة الفلسفة الحديثة " ٩٧/١، وزقزوق، محمود. "تمهيد للفلسفة " ص ١٤٩، ومدكور إبراهيم، كرم، يوسف. "دروس في تاريخ الفلسفة " ص ٣٠٤.

(٤) الطويل: أسس الفلسفة ص ٢٧٣، وزاهر، رفقي. "أعلام الفلسفة الحديثة " ص ٧٩.

(٥) البهي، محمد. "الفكر الإسلامي الحديث " ص ٢٣٣، وزقزوق، محمود. "تمهيد للفلسفة " ص ١٥٤، ورسل، برتراند. "تاريخ الفلسفة الغربية " ١٨٩/٣، مدكور، إبراهيم، وكرم، يوسف. "دروس في الفلسفة " ص ٤٠٢، وزاهر، رفقي. "أعلام الفلسفة الحديثة " ص ٧٩.

(٦) صالح، سعد الدين السيد. "العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث " ص ٤٥.

(٧) غلاب، محمد. "المعرفة عند مفكري المسلمين " ص ٧٦.

ميتافيزيقا، والوحي يختص بموضوعات أعلى من طور العقل ويوصل إلى معارف يقينية[١].

فالوحي الإلهي من خلال الكتاب والسنة مصدر أساسي من مصادر المعرفة حيث يكشف عن حقيقة العالم الغيبي، كما يكشف عن حقيقة الإنسان، والغاية من وجوده، والموت وما بعده، وهو الذي يحدد واجبات المخلوق نحو خالقه، ويحدد أصول الأخلاق والمعاملات، ويضع أسس بناء المجتمعات على العدل والمساواة والأخوة الإيمانية، وغير ذلك مما يعجز العقل عن تحديده ووضع أصوله.

والوحي الإلهي مصدر هداية للناس يذكرهم بالخير الذي فطرهم الله عليه، وبالشر الذي جبلوا على كرهه، وهو المصدر الصادق الذي يوضح الحقائق الغيبية، ويفسر القضايا التي لا يدركها العقل، ولا يحيط بها؛ ولذا كان من الضروري الإيمان به لإشباع الفطرة الإنسانية، ولإرشاد الناس وإنقاذ البشرية من ضلال الهوى، لكن المدرسة الوضعية ترى أن التصديق بالغيب خرافة وأسطورة، وأنكرت الوحي طريقا للمعرفة، وأرجعت المعارف إلى الحس والواقع فقط، وفسرت الوجود كله بالمحسوس وحده.

المطلب الثالث: تطور المعرفة عند فلاسفة الوضعية من خلال قانون الحالات الثلاث.

أولا: المناخ الذي ظهر فيه القانون.

ظهرت الفلسفة الواقعية في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت من بين اتجاهات ثلاثة تحاول استعادة أصالة الفكر الفرنسي من خلال الإيمان بقيم عليا تتوحد حولها الأفكار، وتنظم بها المجتمعات، فالفلسفة الروحية قصرت همها على دراسة الظواهر النفسية؛ لاستكشاف أصلها، وبيان خصائصها، وقوانينها، وعلاقتها بالإشارات المعبِّرة عنها، ورأت أن الإنسان يولد وفيه قوى عقلية واستعدادات فسيولوجية فطرية ذات أثر قوي في الحياة النفسية، وأن فيه نفسا مستقلة بذاتها، وميولا أصيلة إلى الميتافيزيقا والدين، بينما رأت الفلسفة الكنسية الفرنسية أن المجتمع الفرنسي لا ينتظم إلا بالعودة إلى تعاليم الكنسية؛ لأن تعاليمها تستند إلى نبوءات تحققت ومعجزات لا سبيل إلى الشك فيها، فهي ليست مذهبًا معروضًا علينا، ولكنها شريعة يجب أن تخضع لها قلوبنا، وأرجعت عدم المبالاة بالدين إلى البروتستانتية التي بلبلت الأفكار وزعزعت مبدأ السلطة في الدين والاجتماع، فانتهت إلى الإلحاد في الدين، والشك في العقل، فانهارت أسس الأخلاق، وأما الفلسفة الوضعية فتدعي أنه يجب أن يقوم نظام المجتمع الفرنسي على أساس العلم الواقعي وعلى أن المعرفة الإنسانية تستند إلى علاقات الظواهر بعضها ببعض، وليس هناك في دائرة المعرفة مطلق يجعل أساسا لمجهول، والمبدأ المطلق الوحيد الذي له اعتبار عام هو أن كل شيء نسبي، وليس هناك فائدة من الحديث عن الأصول والعلل الأولى للوجود، ولا عن أهدافها الأخيرة، وهي معرفة الميتافيزيقا والدين[٢].

ثانيا: الصيغة العامة لقانون الحالات الثلاث عند أوجيست كونت ١٨٥٧م (Aogust Comte).

ترى الفلسفة الواقعية أن المعرفة التي تتسم باليقين تأتي للإنسان عن طريق العلوم التجريبية؛ لأن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، ولهذا أنكر المذهب الوضعي كل تفكير ميتافيزيقي[٣]، ووضع للتفكير أربعة ضوابط:

---

[١] صالح، سعد الدين. "قضايا فلسفية " ص ١٤٧.

[٢] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٣١٣، والبهي محمد "الفكر الإسلامي الحديث " ص ٢٦٩.

[٣] "الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر " ص ٩٤، ٩٥، والطويل، توفيق. "أسس الفلسفة " ص ١٩٢، ١٩٣.

الأول: استبعاد البحث في الغايات القصوى، والأشياء الخارجية عن الظواهر الطبيعية والعلاقات بينها؛ لأنه لا يمكن أن نصل فيها إلى معارف يقينية، كالعلل والغايات والأشياء بالذات.

الثاني: اعتماد الحساب والتجربة، الحساب حينما نكون بصدد النتائج الناجمة عن مبادئ معينة، والتجربة حينما نكون بصدد الوقائع التي يتعلق بها تحديد القوانين.

الثالث: إعطاء النتائج قيمة نسبية.

الرابع: الاهتمام بما هو قابل للتطبيق إنسانيا، فلا يركز الإنسان على أمور يستحيل عليه بلوغها، بل يطلب حاجاتنا العملية في مجموعها[١].

ويرى «كونت ١٨٥٧م» أن العقل الإنساني قد مر بمراحل ثلاث هي: اللاهوتية، والميتافيزيقية، والوضعية، وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث تختلف عن الأخرى في الموضوع، وفي المنهج، وفي التفسير، كما أن لكل مرحلة نتائج مختلفة عن الأخرى سواء أكانت نظرية أم عملية[٢]، ففي المرحلة اللاهوتية يفترض العقل البشري في بحثه عن الطبيعة الأساسية للأشياء والعلل الأولى والغائية أن كل الظواهر ناتجة عن الفعل المباشر لكائنات فوق الطبيعة، فموضوع الحالة اللاهوتية هو حقائق الأشياء وأصلها ومصيرها[٣]، وقد تدرج في ذلك درجات ثلاث:

- الدرجة الأولى: الفيتشية[٤] ويضيف فيها إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان.
- والدرجة الثانية: تعدد الآلهة، وفيها يسلب عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع عليها من حياة، ويضيف أفعالها إلى موجودات غير مرئية، وكانت هذه الموجودات عند كونت تؤلف عالمًا علويًّا.
- وكانت الدرجة الثالثة: التوحيد، وفي هذه الدرجة جمع الإنسان كثرة الآلهة في إله واحد مفارق، وفي هذه الحالة تتسع الشقة ويزداد التضاد بين الأشياء وبين العلل التي تفسر بها الأشياء.

وقد بلغت الحالة اللاهوتية أوجها في الكثلكة التي تؤلف التفسيرات الفائقة للطبيعة في فكرة إله واحد مدبر للكل بإرادته، فخصائص الحالة اللاهوتية هي أن موضوعها مطلق، وتفسيراتها فائقة للطبيعة، ومنهجها خيالي، هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فقد كانت المعاني اللاهوتية أساسًا متينًا مشتركًا للحياة الخلقية والاجتماعية، وكانت هذه المرحلة الأولى مرحلة السلطة، سلطة الكهنة وسلطة الملوك[٥].

وفي الحالة الميتافيزيقية يرمي العقل كذلك إلى استكناه صميم الأشياء وأصلها ومصيرها، ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللا ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء، وما هي إلا معانٍ مجردة جسمها له الخيال، فقال: العلة أو القوة الفاعلية والجوهر والماهية والنفس والحرية والغاية وما إليها[٦].

وإذا كانت الحالة اللاهوتية قد مرت بثلاث حالات فإن الحالة الميتافيزيقية قد مرت بثلاث حالات أيضا، فيقابل الفيتشية عند الميتافيزيقيين الاعتقاد بأن هناك عللا ذاتية في باطن الأشياء، كما أن الفيتشية تعتقد بحياة في الكائنات الطبيعية.

---

[١] كريسون، أندريه. "تيارات الفكر الفلسفي " ص ٣٢٣: ٣٢٦.

[٢] فلسفة أوجست كونت ص ٣٤، وديورانت "قصة الفلسفة " ص ٤٥٤.

[٣] كلي رايت، وليم. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٣٩٥، والبهي، محمد. "الفكر الإسلامي الحديث " ص ٢٣٦.

[٤] الفيتشية: يقصد به الشيء الذي يكون مسكونا بروح أو قوة سحرية، ويعني به هنا إضافة حياة روحية إلى الكائنات الطبيعية، ينظر: وهبة، مراد. "المعجم الفلسفي" ص ٤٨٠.

[٥] كريسون، أندريه، "تيارات الفكر الفلسفي " ص ٣١٩، وكرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٣١٨.

[٦] الطويل، توفيق، "أسس الفلسفة " ص ١٩٤.

- وفي حالة تعدد الآلهة يقابلها في الميتافيزيقا تقسيم الظواهر إلى طوائف وتخصيص كل طائفة بقوة بعدد طوائف الظواهر، مثل القوة الكيميائية والقوة الحيوية.
- وحالة التوحيد في اللاهوتية يقابلها في الميتافيزيقا إرجاع مختلف القوى إلى قوة أولية هي "الطبيعة"؛ لذا تبلغ هذه الحالة أوجها في مذهب وحدة الوجود الذي يجمع في "الطبيعة" جميع القوى الميتافيزيقية، وكل الفرق بينها وبين الحالة السالفة أن المجرد يحل محل المشخص، ويحل الاستدلال محل الخيال، أما الملاحظة فثانوية فيها جميعًا[١].

والحالة الميتافيزيقية عند الوضعيين فترة انتقال وأداة انحلال؛ وهي فترة نقد عقيم ولكنه ضروري، إذ يتناول الإنسان المعاني اللاهوتية فيبين التناقض فيها، لكنه على أية حال خالف الدور اللاهوتي في أنه أحل المجرد مكان المشخص، ووضع الاستدلال مكان الخيال؛ لأن العقل في هذه الحالة يضع معاني أو قوى موضع الإرادات المتقلبة، وبهذا يضعف من سلطان القوى المفارقة، هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فيبدو الانحلال في انتشار الشك والأنانية، ويتصور الاجتماع ناشئًا من تعاقد الأفراد، وتقوم الدولة على مبدأ سلطة الشعب، ويحكمها القانونيون[٢].

وفي الحالة الواقعية يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة، فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها وترتيب القوانين من الخاص إلى العام؛ فتحل هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، ويستعاض عن العلل بالقوانين، أي: العلاقات المطردة بين الظواهر، وبهذا تختلف الحالة الواقعية عن الحالتين الأخريين في الموضوع والتفسير والمنهج، وهذه الطريقة أفلحت في تكوين العلم، وأوجبت أن يحل العلم الذي تولد عنها محل الفلسفة، كما أن نجاح العلم الواقعي يقضي بإمكانه وبأنه المجال الحقيقي للعقل، هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فتمتاز الحالة الواقعية بقيام علم الاجتماع[٣].

ومن المعلوم أن هذه الحالات الثلاث متنافرة، ونحن نجدها تتعاقب في كل إنسان، ففي الحداثة نقنع بسهولة بالتفسيرات اللاهوتية؛ وفي الشباب نقتضي عللا ذاتية، وفي سن النضج نعول في الأكثر على الوقائع، غير أن هذا التنافر لا يمنع من التقارن؛ فالشخص الواحد قد يقبل تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية في بعض الموضوعات، مع قبوله العلم الواقعي في موضوعات أخرى هي على العموم أقل تعقيدًا؛ وأهل العصر الواحد بنوع خاص نرى بعضهم على حالة وبعضهم على حالة أخرى؛ وكذلك شعوب الأرض ليسوا كلهم على درجة واحدة من رقي العقل، على أن القانون الكلي يبقى صادقًا إذا اعتبرنا الحالة الغالبة في شعب معين وعصر معين، فإننا حينئذ نرى اللاهوت ينجم أولًا، ثم نرى الميتافيزيقا تعارضه، وأخيرًا يولد العلم الواقعي الذي هو وحده قادر على البقاء؛ لأن الحالتين السابقتين لما كانتا قائمتين على الخيال كانتا دائمًا مبعث مناقشات وظنون جديدة، على حين أن العلم يستند إلى الواقع فيجمع العقول على وحدة الرأي ويحل محلهما، لا يتكلف في ذلك محاربتهما بل يتركهما تسقطان من تلقاء ذاتهما[٤].

وقد جاهد أتباع كونت في استبعاد النزعة الميتافيزيقية والمنطقية الصورية عن الفلسفة وعلومها، واستعاضوا عنها بالنزعة التجريبية، وتركوا الخيال والاستدلال منهجا،

---

[١] عتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث" ص ٨٥.

[٢] الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر ص ٩٧.

[٣] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٣١٨، وأيكن، هنري، "عصر الأيدولوجية " ص١٤٦.

[٤] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٣١٨، ٣١٩.

واصطنعوا مناهج التجربة، وانصرفوا عن البحث في كنه الموجودات وحقيقتها إلى دراسة الظواهر نفسها، وتجلت جهودهم في الكثير من العلوم الفلسفية والجزئية[١].

والحق أن المعرفة الحسية لا تمثل إلا مرحلة طفولة العقل البشري؛ لأن الإنسان يبدأ حياته معتمدا على حواسه في تحصيل المعارف والعلوم، أما نظرة التعليل بالمعاني العامة فإنها تنبثق في النفس على أثر ذلك، متى استيقظت ملكتا التجريد والتعميم في التصورات والأحكام[٢].

والبحث العلمي النزيه يثبت بطلان قانون الحالات الثلاث؛ لأن علماء الأجناس وعلماء الإنسان قرروا أن الإنسانية لم تبدأ بالفيتشية أو الشرك والوثنية والتعدد، بل بدأت بالتوحيد، ومن هؤلاء العلماء «آندرو لانج» عالم الأنثروبولوجيا الاسكتلندي صاحب كتاب "نشأة البشرية" والذي قرر أن أول ديانة إنسانية ظهرت في الوجود هي ديانة التوحيد، وأكد نظريته بأن وجود الانحراف لا يثبت أنه الأصل؛ لأن الديانة النصرانية كانت ديانة توحيد ثم انحرفت إلى التثليث، واستند في ذلك إلى دراسات أنثروبولوجية عن قبائل وسط أفريقيا مثل الزولو والبوشمان والهوتنتوت وبعض قبائل الأمريكتين واستراليا الجنوبية الشرقية[٣].

كما يرى «شميدت» أن التوحيد فطري في النفس البشرية، وقد أثبت هذه الحقيقة من خلال بعض الدراسات الإنثروبولوجية على الأقزام، وعند سكان أستراليا الجنوبية الشرقية، وقد انتهى «شميدت» إلى أن التوحيد الحقيقي يوجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس البشرية حيث عبدوا الله الواحد ووصفوه بالأبدية والأزلية والسرمدية[٤]، وأثبت «شريدر» وجود فكرة التوحيد عند الأجناس الآرية القديمة؛ مما يؤكد أن عقيدة التوحيد والإيمان بالإله الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في المجتمعات البشرية، وما الوثنيات إلا أعراض طارئة وأمراض عقلية متخلفة[٥].

كما أن الحالات الثلاث ما هي إلا تيارات متعاصرة وجدت منذ فجر البشرية مع بعضها، فلا تمثل أدوارا تاريخية متعاقبة، وليست كلها على درجة واحدة من الازدهار أو الخمول في شعب ما، بل هي متجاورة متعاصرة في نفس كل فرد، ولها وظائف يكمل بعضها بعضا في إقامة الحياة الإنسانية على وجهها، ولكل واحد منها مجال يوائمها[٦].

ولو تفكر **كونت** قليلا لعلم أن النوع الإنساني لم يكن ليبقى على وجه الأرض لو لم يتعرف على خصائص الأشياء منذ أول أمره، لكي يستفيد من النافع ويحذر من الضار، وهذا يدل على أن التفكير الواقعي لا بد وأن يكون مع الإنسان منذ أول أمره، فالأولى أن يقال إن الحالات الثلاث متعاصرة، متلازمة مع تفاوت فيما بينها في كل عصر وكل فرد، وأن يكون لكل منها قيمة[٧].

فالواقع يكذب دعوى الوضعيين فبمقتضى هذا القانون نكون قد تخلينا عن التفكير الديني؛ لأنه يناسب طفولة البشرية، ولكننا ما زلنا نسمع ونرى في كل عصر تقديسا للروحانيات، وشغفا بالمعنويات والمعقولات الكلية، إلى جانب تعلق البعض الآخر بالحوادث والحقائق الجزئية، وها نحن في القرن الحادي والعشرين وفي قلب الحضارة الأوروبية نرى إلى جانب البحوث المادية دراسات روحية يقوم بها كبار علماء الطب والفلسفة والطبيعة على منهاج

---

[١] الطويل، توفيق. "أسس الفلسفة " ص ١٩٥.

[٢] دراز، محمد عبد الله، "الدين " ص ٨٧، ٨٨.

[٣] لمعرفة هذه القبائل الأفريقية ينظر: رياض، محمد، وعبد الرسول كوثر. "أفريقيا: دراسة لمقوّمات القارّة" ص ١٨١ وما يليها.

[٤] دراز، محمد عبد الله، "الدين " ص١٠٧، ١٠٨.

[٥] الأعظمي، محمد. "دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند " ص٢٦.

[٦] دراز، محمد عبد الله. "الدين " ص ٨٦، ٨٧، والطويل، توفيق. "أسس الفلسفة " ص ٢٠٩.

[٧] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٣٢٩.

علمي دقيق، وبأسلوب برهاني يعتمد على التحليل والنقد الصارم الذي ينحِّي عن الوقائع ما عساه أن يعلق به من تزوير وخداع[١].

بل إن الأبحاث الروحية قد انتشرت في أوربا في القرن العشرين انتشارا كبيرا دفع القائمين على أمر الكنائس المسيحية إلى التعديل في تعاليمها؛ حتى لا يؤدي إلى هدم سلطة الكنيسة وأصولها الاعتقادية بسبب الحرب الضروس على الأديان ذات العقائد الجامدة[٢].

وليس في تاريخ العقل البشري ما يثبت أن مرحلة التفكير الفلسفي تسبق مرحلة التفسير العلمي، ولعل الأدنى إلى الصواب أن يقال إن الفلسفة التي تبدأ حيث ينتهي العلم تكمل العلم، وأنها تكملة ضرورية له، بالإضافة إلى أنها قمة في بناء لا ينتهي، فمن التجني أن يقول الوضعيون إن الفلسفة قد استنفذت موضوعاتها، وأنه من الممكن أن نستغني عنها اكتفاء بالعلم ومناهجه[٣].

ومهما يكن من أمر فإن الأشياء التي تخضع للملاحظة والتجربة محدودة، وعلى هذا لا تستطيع التجربة أن تصل إلى كل شيء، وهذا يعني أن أكثر الظواهر ستظل خارجة عن العلم ولا نستطيع بحثها، كما أن الظواهر متباينة والقوانين التي تبين العلاقات بينها متعددة بتعدد الظواهر، وعلى هذا يمتنع رد العلوم بعضها إلى بعض، ويمتنع رد القوانين المتكثرة إلى قانون واحد، بل إن في كل علم فروعًا مستقلة، في علم الطبيعة وفي علم النبات وعلم الحيوان، ومن هنا لا يمكن أن نرد الحالة الواقعية إلى حالة مطلقة، كما ترد إلى الله في الحالة اللاهوتية، وإلى الطبيعة في الحالة الميتافيزيقية، فالفلسفة الواقعية جملة القوانين المكتسبة فعلا بالتجربة، لا جملة قوانين الوجود.

هنا يجيب «كونت ١٨٥٧م» بأنه إذ لم نستطع الوصول إلى وحدة موضوعية بحيث لا نرد الحالة الواقعية إلى حالة مطلقة، لكن بوسعنا أن نصل إلى وحدة ذاتية تقوم في تطبيق منهج واحد بعينه في جميع ميادين المعرفة، فننتهي إلى تجانس النظريات وتوافقها، ومن ثمة إلى علم واحد[٤].

والمنهج الواقعي عند «كونت» يحقق الوحدة في عقل الفرد، ويحققها بين عقول الأفراد، وهكذا تصير الفلسفة الواقعية الأساس العقلي للاجتماع، ومن هذه الوجهة تجد في معنى الإنسانية المقابل الوحيد الممكن لمعنى الله، ولمعنى الطبيعة[٥].

والحق أن قانون الحالات الثلاث لا يتجاوز أن يكون فرضا من الفروض الفلسفية، ولا يوجد عليه دليل محسوس يكفي لأن يكون قانونا يقينيا يمكن التنبؤ على أساسه بمستقبل الفكر الإنساني، ولقد أقر «كونت» نفسه في تصنيفه العلوم بأن الرياضة في أول أمرها كانت واقعية[٦]، وهذا يتنافى مع القول بأن المعرفة تبدأ لاهوتية أولا، ثم تنتهي واقعية[٧].

كما أنه لا يوجد دليل على هذا القانون، فقد وضعه «كونت» ثم درس تاريخ بعض القبائل البدائية دون استقراء تاريخ كل المجتمعات؛ لأن التاريخ الأوربي يؤكد أن الدورة تتكرر، فقد كان دينيا قبل تفلسف الإغريق، ثم ميتافيزيقيا عقليا في عهد «سقراط ٣٩٩ ق م» و«أفلاطون ٣٤٧ ق م»، ثم مال في عهد «أرسطو ٣٢٢ ق م» إلى التجربة والواقع، ثم ابتدأت دورة أخرى من جديد، فعَدَّ الدين في القرون الوسطى مصدرا للمعرفة، ثم جعل للعقل اعتباره –بدلا من الدين– في عصر التنوير

---

[١] دراز، محمد. "الدين " ص ٨٦، ٨٧.

[٢] وجدي، محمد فريد. "على أطلال المذهب المادي" ٣/٥٠.

[٣] الطويل، توفيق. "أسس الفلسفة " ص ٢٠٩.

[٤] بوترو، إميل. "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة " ص ٦٢ وما يليها.

[٥] كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٢٠، ولوكر، دومينيك. "قانون الحالات الثلاث في فلسفة أوغست كونت " ص ١٩٠.

[٦] كريسون، أندريه. "تيارات الفكر الفلسفي " ص ٣٢٨.

[٧] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة " ص ٣٢٩، وعتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه " ص ١١٠.

في القرن الثامن عشر، ثم قوي الميل إلى عدِّ المعرفة الحسية أو الوضعية وحدها –دون العقل والدين معا– في القرن التاسع عشر، فإذا كانت هذه الدورة الثلاثية قانونا لا يتخلف للمعرفة، أو بالأحرى لاعتبار مصدر المعرفة، فالمنتظر –بناء على سير التاريخ– أن يعود الاعتبار للدين من جديد، بعد أن قويت موجة الواقعية أو الوضعية في القرن التاسع عشر، ويعود الاعتبار في المعرفة للدين وحده[١].

ومن المعلوم أن المعرفة التجريبية تفتقر إلى أساس فلسفي فإن الفلسفة هي التي تقوم بتفسير المشاهدة وغيرها من مقومات العلم، وأساس الأبحاث التجريبية فروض يقبلها العالم دون أن يتعرض للبحث فيها، والفلسفة هي التي تتناول هذه الفروض بالبحث والتدليل، والمعرفة التجريبية لا تكفي لحل المشاكل التي تواجهها، بل إن العلم نفسه ليس إلا حقيقة من الحقائق التي تعالجها الفلسفة في نظرية المعرفة، وليس كل معرفة تكتسب بالتجربة تكون علما، والعلم لا يدرس الموضوعات التي لا تخضع للتجربة كطبيعة الأشياء وأصلها، ومصيرها، ومنهج الفلسفة عقلي ومسائلها أعم من مسائل العلم، والعلم يستبعد كل الموضوعات التي تسمو على التجربة ولا تكفي الجزئيات لقيام العلم، فهو يقوم على الكل، والوضعية تعتمد على التجارب الجزئية، وهذه لا تكفي لتفسير الكل، وما ينجم عنه من حكم وقياس واستقرار، والعلم يستخدم المبادئ الكلية كمبدأ العلية مع أنها لا تكتسب بالتجربة[٢].

إن الفلسفة الوضعية تريد من الإنسان أن يظل في حدود المادة، مع أن الإنسان لو رجع إلى فطرته لعلم يقينا بأن وراء هذه الأسباب مسببا حقيقيا وهو الله تعالى، فالإنسان قد فطره الله تعالى على الإيمان به، وأرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين لدعوة الناس إلى عبادته، والبشرية لم تبدأ بالشرك كما يدعي «كونت ١٨٥٧م» بل بدأت بالتوحيد الخالص؛ لأن أبا البشر جميعا كان نبيا، لكن الغربيين اغتروا بالمنهج التجريبي حين أوصلهم إلى نتائج علمية كثيرة، وكان سببا في تقدمهم وحضارتهم فظنوا أن في إمكانه أن يتناول كل ما في الوجود، وأنه يستطيع أن يخضع لسلطانه السماء كما أخضع الأرض، وأنه قادر على أن يحني أمام التجربة كل المعنويات والغيبيات كما حنى الحسيات، ولذلك وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الإلحاد[٣].

ثالثا: تطبيق المنهج التجريبي على علم الاجتماع وسائر العلوم الإنسانية.

إن «كونت ١٨٥٧م» حاول تطبيق المنهج التجريبي على سائر العلوم الإنسانية ومنها علم الاجتماع، فادعى أن المجتمع مصدر المقياس الأخلاقي، وهو منبع الأخلاق، والغاية التي ينشدها الناس في حياتهم، في محاولة منه لتأسيس أخلاق علمية تستند إلى إلزام يشعر معه الأفراد بأنهم مطالبون بالتمسك بالقيم والأخلاق؛ لأن المشكلة هي: أن الناس وقفوا في فهمهم للظواهر الاجتماعية عند الأسلوب الديني الميتافيزيقي، بينما تخطوا هذا الأسلوب في فهمهم ظواهرَ الطبيعة، فكانوا يفهمونها على الطريقة الوضعية، وكان لهذا التناقض في فهم الأشياء أثره في فساد التفكير، الذي أدى بدوره إلى فساد الأخلاق، التي نتج عنها اضطراب في سير المجتمع، ولهذا ينبغي إصلاح التفكير، فبصلاحه يصلح فساد الأخلاق، وبصلاح الأخلاق يصلح المجتمع، وقد استعرض كونت الوسائل المختلفة التي تؤدي إلى إصلاح التفكير فوجد أن السبيل الوحيد لإصلاحه هو القضاء على الطريقة الدينية الميتافيزيقية في التفكير، وجعل الناس يفهمون

---

[١] البهي، محمد. "الفكر الإسلامي الحديث " ص ٢٧٠.

[٢] الطويل، توفيق. "أسس الفلسفة" ص ٢٠٨.

[٣] صالح، سعد الدين. "العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث" ص ٤٥.

جميع الظواهر، طبيعية كانت أم اجتماعية، على أساس المنهج الوضعي؛ لأن الظواهر الاجتماعية لا تختلف عن الظواهر الطبيعية في شيء، وذلك لما يأتي:

- إن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين عامة؛ لأنها جزء من ظواهر الحياة، وجميع ظواهر الكون تسير وفق قوانين، لا وفق الأهواء والمصادفات.
- كشفُ الباحثين عن القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية، وتعريف الناس بها، ولن يتم ذلك إلا بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية منظمة[١].

وهكذا حاول «كونت ١٨٥٧م» وأنصاره من بعده أن يتصوروا المجتمع تصورا فيزيقيا، ويطبقوا عليه المناهج العلمية البحتة معتقدين أن ظواهر المجتمع مثل ظواهر الطبيعة يمكن أن يخضعوها للتجربة والملاحظة، والآن بعد أن مضى أكثر من قرن على وفاة كونت نحاول أن نبين مدى النجاح أو الإخفاق الذي حققه المنهج الوضعي، كما وضعه كونت وأنصاره في دراسة الظواهر الاجتماعية، ولو كان قد نجح لفرض نفسه على الأبحاث الاجتماعية في كل مكان، ولكن الأمر بخلاف ذلك، فالباحثون المتحمسون لعلم الاجتماع لا يستطيعون أن يدعوا أنهم قد توصلوا إلى قوانين اجتماعية تقترب في دقتها من قوانين الطبيعة، وكل ما استطاعوا أن يقولوه تجاه هذه الاعتراضات التي تقوم ضد تطبيق المناهج العلمية على الظواهر الاجتماعية والإنسانية على وجه العموم هو أن الأمر وإن كان عسيرا حتى الآن، إلا أنهم متفائلون بإزاء المستقبل وينتظرون أن تحل مشاكل علم الاجتماع[٢].

ولقد أثر «كونت ١٨٥٧م» في توجيه الدراسات الاجتماعية من بعده تأثيرا كبيرا، وسار على هدي طريقته عدد كبير من المفكرين الاجتماعيين، فكانوا يبدؤون بوضع القوانين والنظريات العامة ثم يحاولون تطبيقها على ظواهر الاجتماع، كالمدرسة البيولوجية التي حاولت تفسير الظواهر الاجتماعية على ضوء القوانين التي تسير عليها الظواهر البيولوجية، والمدرسة الجغرافية التي فسَّرت كل ما يحدث في المجتمع بالرجوع إلى الظواهر الجغرافية، وغيرهم من الذين وضعوا نظريات في الصراع الاجتماعي، وحاولوا استخلاص أسس الاجتماع الإنساني من مبادئ تنازع البقاء وصراع الأجناس وبقاء الأصلح[٣].

المبحث الثالث: موقف الفلسفة الواقعية من الدين والميتافيزيقا.

يشيد «كونت ١٨٥٧م» بنظام الكثلكة، ويرى أنه حافظ على ثبات المجتمعات واستقرارها، وجمع أفراد المجتمع حول عقيدة واحدة، ولهذا عدّه مأثرة الحضارة الإنسانية[٤]، والدين عنده خاصية النوع الإنساني، والمبدأ الأكبر الموحد لجميع قوى الفرد ولجميع الأفراد في المجتمع، ومع ذلك يصف التفكير الديني بأنه تفكير خرافي وأسطوري، وأنه وإن كان صالحا لطفولة البشرية فإنه لم يعد مناسبا للعصر الوضعي الذي شهد تقدم العلوم، وأثبت أن جميع الظواهر تخضع لقوانين ثابتة تسير بمقتضاها[٥].

ويرى «كونت ١٨٥٧م» أن العقيدة المسيحية تحتوي على أمور تتناقض مع العقل ومع قوانين العلم، وكلما تعاظم فهم الإنسان وارتقى تفكيره أصبح لا يقبل هذه العقيدة، فلسنا في حاجة إلى التفكير الديني ولكل الحقائق المطلقة

---

[١] كريسون، أندريه. "تيارات الفكر الفلسفي " ص ٣٤٣، وحجازي، مقدمة في النظرية الاجتماعية ص ٣٥، واتجاهات نظرية معاصرة في علم الاجتماع ص ٦١، وقاسم، محمود، المنطق الحديث ص ٣٢٢.

[٢] لطفي، عبد الحميد. "علم الاجتماع" ص ٢٩٤، وقنصوة، صلاح. "الموضوعية في العلوم الإنسانية" ص ٥٨.

[٣] حسين، عبد الباسط. "أصول البحث الاجتماعي، ص ٩٢، وكرم، يوسف. "الطبيعة وما بعد الطبيعة" ص ١٣٤.

[٤] كريسون، أندريه. "تيارات الفكر الفلسفي" ص ٣٥٠.

[٥] بريل، ليفي. "فلسفة أوجست كونت" ص ٥٢.

في عصر التقدم العلمي؛ لأن العلم سيقضي على تصوراتها الميتافيزيقية وسيقدم تفسيرات جديدة وخصوصا بعد أن تم التوصل إلى معرفة القوانين التي تخضع لها الظواهر[١].

والحديث عن التفكير الديني والميتافيزيقي عند كونت من آثار الماضي، وبلوغ الإنسانية إلى المرحلة الوضعية يقضي عليه تماما، فينبغي على الإنسان أن يعود في تفسيره الظواهر إلى القوانين الآلية التي تتحكم فيها، أما المعارف الميتافيزيقية فلا يمكن التدليل على أحقيتها، ولا يمكن التدليل على استحالة وجودها، أما تلاميذه من بعده فمذهبهم مادي بحت، وكلام كونت لا يخرجه من المادية؛ لأنه لا أدري بسبب توقفه في مسائل ما وراء الطبيعة؛ وفكرة اللأدري فكرة مادية بحذافيرها[٢].

وتنظر الفلسفة الواقعية إلى الدين على أنه نتاج بشري من وضع الإنسان، ويعدّه كونت مجرد ظاهرة اجتماعية، ويطبق عليه قانون الحالات الثلاث، ويرى أن الدين أول ما ظهر في البشرية ظهر في صورة الخرافة والوثنية، وبارتقاء العقل البشري وتطوره تدريجيا وصل الإنسان إلى عقيدة التوحيد[٣].

كما يقرر كونت أن الدين يهدف إلى غاية لجميع الأفعال وهي الإنسانية، فالدين عبارة عن الإنسانية الكبرى بوصفها الموجود الأعظم الذي تشارك فيه الموجودات المساهمة في تقدم بني الإنسان وسعادتهم، على أساس أن معنى الإنسانية أرفع المعاني، وهو الذي يكفل وحدة المعرفة، وكل أفراد المجتمع الإنساني الذين يعيشون في زمن واحد متعاونون لما فيه خير الإنسانية ورقيها، وكلهم أسهموا في ذلك، واستمرار هذه الجهود يؤدي إلى وحدة الإنسانية[٤]، ولهذا يرى كونت أن كل إنسان يجب عليه أن يقتنع بأنه لم يصبح إنسانا بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، إلا بفضل اشتراكه في الإنسانية، وعلى كل إنسان أن يمتلئ قلبه بالولاء للإنسانية، ويغلب جانب الإيثار، ويدرك أنه مدين لها بكل شيء، وبالرخاء المادي الذي يعيش فيه؛ لأن أسبابه ترجع إلى الأجيال السابقة الذين ضحوا وعملوا كل ما بوسعهم لخير الإنسانية واستمرارها، وعليه أن يسهم بجهود في سبيل استمرار الإنسانية وتقدمها ويشعر بالحب والولاء لكل هؤلاء الأبطال الذين بذلوا كل ما فيه جهدهم في سبيل استمرار الإنسانية[٥].

ولا أدري كيف يقول كونت بأن التفكير الديني تفكير خرافي وأسطوري وملائم لطفولة البشرية مع أنه يريد إخضاع الناس لدين جديد وهو دين الإنسانية؟؟ [٦].

والعبادة في الفلسفة الوضعية مجرد تذكر للأموات والأحياء الذين يعملون لخير الإنسانية وتقدمها، وخصوصا المرأة، فينبغي على الرجل أن يرى فيها ملاكه الخاص، وعلى كل واحد أن يقوم بأداء ثلاث صلوات كل يوم، واحدة صباحا، وواحدة ظهرا وواحدة مساء، وهذه الصلوات عبارة عن تذكر المرأة والإغداق عليها بالحنان والمحبة وقراءة الأشعار في إخلاصها وتفانيها، وهذه العبادة إما أن تكون عبادة خاصة أو عبادة أهلية أو عبادة عامة، فالعبادة الخاصة تكون موجهة للأشخاص الأعزاء على الفرد والذين يتخذهم نماذج للمثل الأعلى في صيانة الموجود الأعظم وهو الإنسانية، وإبلاغه حد الكمال، باعتبار أن كرامة الفرد تتحقق في كونه جزء من هذا الموجود الأعظم، أما العبادة الأهلية فهي عبارة عن ربط كل أسرة بالوطن، والعبادة العامة تكمن في تكريم

---

[١] بريل، ليفي. "فلسفة أوجست كونت" ص ٤٦.

[٢] عتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث" ص ٨٨.

[٣] كريسون، أندريه. "تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث" ص ٣٢١، ٣٢٢.

[٤] بريل، ليفي. "فلسفة أوجست كونت" ص ٣٤٥، وبوترو، إميل. "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة" ص ٤٨، ٤٩.

[٥] بوترو، إميل. "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة" ص ٥٠.

[٦] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة" ص ٣٢٧، والخشاب، مصطفى. "أوجست كونت" ص ١٩.

المحسنين إلى الإنسانية، وإقامة أعياد مدنية الهدف منها إحياء ذكرى كل من أسهم في جعل الإنسانية هيئة نظام وتقدم[١].

وعبادة الإنسانية لها كهنتها، وهم الفلاسفة والشعراء والأطباء، ويمثلون هيئة أعضاؤها فلاسفة وشعراء وأطباء معًا، مهمتها استكشاف الطريق الذي يكفل خير الإنسانية والعمل على تحقيق ما حققته الكنيسة في العصور الوسطى، أو أرادت تحقيقه[٢]، ولها معابد، وتمثل الإنسانية فيه على شكل امرأة تحمل طفلا بين ذراعيها، ودعا **كونت** إلى عدِّ السنة ثلاثة عشر شهرا، وسمى كل شهر من هذه الأشهر باسم عظيم من عظماء الإنسانية، ودعا إلى إقامة الأعياد الوضعية التي يتذكر فيها هؤلاء العظماء، ونصَّب نفسه بابا للإنسانية، كما اخترع شعارا لهذا المذهب، وهو «العيش في سبيل الآخرين»، وابتدع حركة وضعية تحل محل الصليب[٣].

والفلسفة الواقعية ترى أنها تحررت من المعتقدات الخيالية القديمة بالنسبة لتصور الكون وأصبح الإنسان الوضعي متحصنا بالعلم الوضعي الواقعي، وما دام الأمر كذلك فلا يضر الإنسانية أن تعود إلى «الفيتشية» التي تضيف للأشياء نفسا وحياة، فتفسر بها الطبيعة وفي هذا مصدر قوة للغة والفن، وكل ما من شأنه أن يفيد في بقاء الموجود الأعظم ونمائه، ومن أجل ذلك لن تتجه عبادة المذهب الوضعي إلى ذكرى أبطال الإنسانية فقط، بل ستكون موضوعاتها الأساسية الموجود الأعظم أو الإنسانية فقط، والمعبود الأعظم أو الأرض، والبيئة العظمى أو المكان، هذه الأقانيم الثلاثة تكون ثالوث المذهب الوضعي[٤].

وقدّم كونت تفسيرا طبقيا للمجتمع يبدأ بطبقة النساء وتتميز بالتفوق الانفعالي، وعليهن واجب وهو إثارة عواطف الحنان والغيرية الكفيلة باستكمال الموجود الأعظم، وطبقة الفلاسفة والمفكرين وتتميز بالتفوق العقلي، وهم بمثابة الدماغ من الجسم، والطبقة التي يتعلق بها النشاط الاجتماعي، وهم القادة الصناعون، والعمال من التجار والصناع والمزارعين، وهم بمثابة أعضاء التغذية[٥].

ويفسر كونت نشأة العقيدة الإلهية بإرجاعها إلى الإنسان نفسه، فالإنسان البدائي أضاف إلى الظواهر الطبيعية والأشياء التي من حوله روحا، وما لبث أن عبد هذه الظواهر واعتقدها آلهة، ومن هنا نشأت العقيدة الدينية في الإنسانية، ثم خضعت لقانون التطور.

ولو نظرنا إلى الدين الذي اخترعه كونت نجده مجرد اقتباس وتلفيق من التنظيم الكاثوليكي، وهذا ما اعترف به «ليفي بريل ١٩٣٩م» عندما قال: " إن **كونت** اقتبس من المذهب الكاثوليكي في العصور الوسطى كل شيء تقريبا فيما خلا العقيدة، أي أخذ عنه أسسه ونظامه وطرق العبادة فيه، وعلى ذلك فليست ديانة **كونت** إلا المذهب الكاثوليكي بعد أن طهر من عقائده"[٦].

بل إن كونت لم يتطهر من عقائد الكاثوليك؛ لأنه آمن بالتثليث، وإذا كان هدفه الرئيس إبعاد اللاهوت والميتافيزيقا عن توجيه الإنسان، وتطبيق المذهب الواقعي؛ ليحل محلهما في تكوين المعرفة الإنسانية، وتوجيه الإنسان، لكنه سقط في الدين والميتافيزيقا إلى أذنيه، فأحل الإنسانية محل الإله في العبادة وسماها الموجود الأعظم، وجعل لها عبادة، وأقام عليها كهنة يدبرون أمرها، وأعطى تصورا ساذجا للكون وجعله ثالوثا، وأعطى تصنيفا طبقيا للإنسان، وهذا كله سقوط فيما فر منه[٧].

---

[١] كريسون، أندريه. "تيارات الفكر الفلسفي" ص ٣٣٠.

[٢] ديورانت "قصة الفلسفة" ص ٤٥٥.

[٣] الخشاب، مصطفى. "أوجست كونت" ص ٣٧٥، ٣٧٦.

[٤] بوترو، إميل. "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة" ص ٥٣.

[٥] كريسون، أندريه. "تيارات الفكر الفلسفي" ص ٣٧٠.

[٦] بريل، ليفي. "فلسفة أوجست كونت" ص ٢٨٢.

[٧] عتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه" ص ١٠٧.

وأما «دور كايم ١٩٧١م» فاتجه إلى التاريخ لمعرفة الصورة الأولى لنشأة العقيدة الدينية، وقصر دراساته على المجتمعات الأسترالية، وخاصة الأريونتا، ورأى أنها تمثل البداية الأولى؛ لأنها تقوم على فكرة التنظيم على أساس العشائر، وهذا التقسيم أصدق نظام للحياة البدائية، وتوصل إلى أن الديانة الطوطمية هي التي تفسر أصل نشأة الدين في البشرية، وأن الطوطم رمز للجماعة ورمز للإله، ومعناها الاعتقاد الداخلي بقوة غيبية أو مقدسة حيث أضفت المجتمعات البدائية صفة التقديس والحياة على بعض مظاهر الطبيعة، ثم تتدرج المسألة حتى تنتهي بعبادته، ويصبح بعد ذلك رمزا للجماعة، ثم تطورت هذه العبادة فوصلت إلى عبادة الإله الواحد[١]، ورأى أن الطوطمية التي تتصل بهذا النظام هي أقدم الأديان[٢]، وأن التدين وليد أسباب اجتماعية نشأت من ظروف المجتمع، بل إن عناصر التفكير وأسس المعرفة العقلية نفسها ما هي إلا صورة ولدتها حياة الجماعة، وطبعتها على غرار النظم الاجتماعية[٣].

ومن المعلوم أن هذه النظرية باطلة ولا قيمة لها وذلك لما يأتي: –

١–لقد آمن دوركايم بصحة نظرية التطور عند داروين وهي في الواقع نظرية غير مسلمة علميا مما أوقعه في كثير من الأخطاء، والمفترض في الباحث العلمي ألا يعتمد على نظرية إلا بعد ثبات صحتها أما أن يأخذ بها مأخذ التسليم ثم يحاول أن يبني عليها نتائج، فذلك مرفوض.

٢–إن دوركايم قد اعتمد على دراسة لبعض القبائل البدائية المعاصرة «الأريونتا» لكي يستنتج ما كان عليه الدين في المجتمعات القديمة لكنه وقع في كثير من الأخطاء منها: –

أ– أن نظام الأسرة أقدم من نظام القبيلة، فالآثار الباقية من عهد القبائل الآرية والسامية توضح هذا، بينما قامت النظرية على العكس من ذلك.

ب– أن قبائل الأريونتا ليست أقدم نظام معروف للقبائل؛ لأن تاريخ الأجناس البشرية يوضح أن هذه القبائل الأسترالية هي الطور السادس الذي انتهت إليه العقلية الوطنية لأهل استراليا، بل هي أكثرها وأحدثها تقدما، وأن أقدم القبائل الأسترالية هم سكان جنوبها الشرقي وتوجد عندهم عقيدة الإله الأعلى، أو الإله الواحد بصورة واضحة.

ج– أن الطوطمية لا تمثل البداية الحقيقية للدين وإنما تمثل مظهرا من مظاهر الانحراف عن الدين؛ لأن الإنسان الأول قد بدأ بعقيدة التوحيد، ثم حدث الانحراف بعد ذلك[٤].

د– أن دوركايم قد خالف المنهج العلمي الصحيح عندما قصر أبحاثه على الطوطمية الأسترالية المتوسطة ولم يقم بدراسة مقارنة مفصلة للطوطمية في جميع صورها.

هـ– أن هذه النظرية متناقضة لأن دوركايم قد اعترف بأن هناك عددا من قبائل أستراليا قد عرفوا التوحيد الحقيقي «الإله الأعلى»، وأنه الإله الخالق لكل ما في العالم، وأنه الذي يقضي بين الناس بعد الموت، وفي الوقت ذاته يرى أن الدين ظاهرة اجتماعية فقط؛ لأن المجتمع هو الذي يضفي على بعض الأشياء طابع القداسة حتى

---

[١] دراز، محمد. "الدين" ص١٥١، والنشار، علي سامي. "نشأة الدين" ص ٨٠.

[٢] كريسون، أندريه. "الأخلاق في الفلسفة الحديثة" ص١٣٤، وإسماعيل، قباري. "علم الاجتماع والفلسفة" ص ٣٣.

[٣] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة" ص٤٣٤.

[٤] النشار، علي سامي. "نشأة الدين" ص ١٤٧.

لو كانت هذه الأشياء من اللهو الخليع الذي تقوم به بعض القبائل في حفلاتهم الماجنة، ويدعي أن هذا هو منبع الدين ومظهره، فهل الدين ظاهرة سماوية أم ظاهرة أرضية؟ إن قال إنه ظاهرة أرضية فكيف يدعي أن هناك بعض القبائل عرفت التوحيد الحقيقي، وإن قال إنه ظاهرة سماوية فكيف يدعي أن صور الإباحية نوع من الدين[١]؟

الحق أن كل هذه الأخطاء التي وقع فيها دوركايم تنسف نظريته وتنقضها من أساسها؛ لأنه لم يكن موجودا عندما خلق الله تعالى السماوات والأرض، وعندما وجد الإنسان الأول، قال تعالى: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً} [الكهف: ٥١].

إن معرفة أقدم بيئة إنسانية ظهرت على وجه الأرض غيب، ولا يعلم بالغيب إلا الله تعالى، ومن هنا يجب علينا أن نرجع إلى الوحي السماوي عند تفسير ظاهرة الدين، ولا نعتمد على بعض الافتراضات؛ لأن هذه الاحتمالات يعوزها الدليل اليقيني والبرهاني والذي لا يمكن أن نصل إليه في مثل هذه الظاهرة إلا عن طريق النبوات والرسالات الهادية للبشرية إلى طريق الحق[٢].

المبحث الرابع: موقف الفلسفة الواقعية من الأخلاق.

يرى كونت أن الأخلاق في المسيحية جامدة لا تواكب مسيرة التقدم العلمي، ولهذا أراد تأسيس أخلاق علمية تجريبية تتلاءم مع العلوم الطبيعية التي بلغها العصر، وهذه الأخلاق التجريبية يجب أن يكون لها علم ينظمها يختلف تماما عن الأخلاق النظرية، وهو العلم التجريبي الذي يبحث عن قوانين الظواهر، وهذا البحث قائم على أساس المعرفة الوضعية للطبيعة الإنسانية، وبهذا المعنى يصبح علم الأخلاق جزءا من علم الاجتماع بمعناه العام، والعلم الواقعي مفيد جدا لعلم الأخلاق؛ لأنه يبين الأثر المباشر وغير المباشر لكل ميل وكل فعل في الحياة الفردية والاجتماعية[٣].

والأخلاق في المذهب الوضعي لا تؤمن بالمعاني الكلية المطلقة التي تقوم عليها المذاهب الفلسفية، وإنما تعتمد على علم الاجتماع، ولذلك فعلم الاجتماع هو حجر الزاوية في فلسفة كونت الوضعية.

ويرى كونت أن المذاهب الأخلاقية قد تكونت قبل إنشاء علم الاجتماع الوضعي، وأن الأخلاق الدينية أسمى من الأخلاق الفلسفية؛ لأنها أقرت الإيثار والحب، وهذا ما يدعو إليه المذهب الوضعي، إلا أنه رأى أنها لا تواكب مسيرة تقدم العقل البشري، واتسمت بالجمود والرجعية، كما أنها تدعو إلى التمسك بأخذ الجزاء في الآخرة، وهذا يجعلها مساوية للأخلاق التي تقوم على المنفعة، ومن هنا فلا حاجة لهذه الأخلاق التي لم تعد صالحة للعصر الوضعي الذي وصلت إليه الإنسانية[٤]، ولهذا يجب أن تقوم الأخلاق على أساس العلم التجريبي، ويجب إلغاء فكرة الحق الراجعة إلى سلطة أعلى من الإنسان، وإحلال فكرة الواجب محلها، وحصر الأخلاق فيه، وهذا الواجب عبارة عن الميل الطبيعي إلى إخضاع النزعات الفردية إلى خدمة النوع الإنساني، والإنسانية أرفع المعاني الأخلاقية[٥].

ويرى إميل دور كايم أن قيام الأخلاق على أساس ديني هو سمة المجتمعات المتخلفة والمتأخرة، ولهذا ينبغي إقامة الأخلاق على أساس العلم التجريبي وحده للوصول إلى التقدم، كما حصل بالنسبة للعلوم المختلفة الأخرى

---

[١] صالح، سعد الدين. "بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي" ص ٦٣.

[٢] دراز، محمد. "الدين" ص١٠٩.

[٣] بريل، ليفي. "فلسفة أوجست كونت" ص ٣١٢.

[٤] الطويل، توفيق، "فلسفة الأخلاق" ص ٢٧٠.

[٥] كريسون، أندريه. "الأخلاق في الفلسفة الحديثة" ص ٧٥.

كالكيمياء، والطبيعة وغيرها، فليس هناك ما يستعصي على العلم وعلى العقل البشري، وليس هناك طريقة أثبتت قيمتها في العالم الإنساني غير الطريقة العلمية، ولهذا يجب تأسيس الأخلاق على هذه الطريقة وإنشاء علم وضعي جديد للأخلاق[١].

ومع ارتباط الأخلاق بالمنهج الواقعي فإنها أيضا نسبية، فما يكون خيرا في بيئة قد لا يكون كذلك في بيئة أخرى؛ لأن الأخلاق عندهم تختلف بحسب ظروف الناس وأحوالهم، ويدعي كونت أن الناس تخوفوا قديما من القول بنسبية المعرفة، وبالرغم من ذلك عاشوا على حقائق نسبية دون أن يؤدِي ذلك إلى القضاء على الحقائق، وعدم التمييز بين الصواب والخطأ، كذلك الأمر بالنسبة للأخلاق[٢].

ومن المعلوم أن الطعن في ثبات المبادئ الأخلاقية، وعدّها أمورا تواضعت عليها البشرية، ولا صلة لها بالدين، وأنها من مخلفات القرون البائدة، وأن التطور الذي يشهده العالم اليوم في جميع الميادين والمجالات يقتضي أن تكون هناك قيم ومبادئ جديدة تتلاءم مع المستوى الحضاري، كل ذلك يهدف إلى إشاعة التحلل والانحلال الأخلاقي بين الأمم، كما أن فيه إنكارا صريحا للدين والميتافيزيقا[٣].

ويطبق كونت قانون الحالات الثلاث على الأخلاق، ويرى أنها مرت بأطوار متعاقبة، وفي كل مرحلة من مراحل التطور الأخلاقي يكون فهم الإنسان قد تطور وارتقى بمرور الزمن؛ لأن الأخلاق جزء من النظام العام للطبيعة، ولا فرق عنده بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الأخلاقية من حيث إن كلا منهما يخضع لقوانين تحدد سيره وتؤدي به إلى التطور[٤].

ويؤكد «ليفي بريل ١٩٣٩م» على أن الطور الأول للأخلاق كان في المجتمعات المنحطة التي آمنت بالمعتقدات الدينية، وكانت الأخلاق تلقائية لا تخضع للتفكير، وإنما ترجع إلى الحقيقة الاجتماعية الواقعية، وليس لديهم القدرة على فهم الواجبات الخلقية والتفكير فيها، ثم ارتقت الأخلاق وبدأ التفكير ينصب على الحقيقة الخلقية، لكن الإنسان لا يريد معرفتها بقدر ما يريد تحديدها وتبريرها في نظر عقله، ويميل إلى التحليل والتعميم في تحديد معاني الفضيلة والرذيلة، ثم ارتقت الأخلاق إلى المرحلة الأخيرة التي وصل إليها العلم الوضعي، وعندما وصل الإنسان إلى هذه المرحلة تحقق من أن الأخلاق التي تميزت بها العصور الحديثة متميزة عن الأخلاق السابقة، وتأكد له القول بنسبية الأخلاق وتغيرها[٥].

وينكر الوضعيون أن تكون هناك قوة فطرية في الإنسان يستطيع من خلالها التمييز بين الخير والشر، والضمير عندهم لا يخرج عن كونه مجموعة من العناصر الاجتماعية المستمدة من البيئة، وليس الشعور الخلقي الموجود لدى الفرد سوى مجرد صدى يتردد في أعماق النفس لأوامر الضمير الجمعي ونواهيه ومعاييره وقيمه[٦]، ويدعون أننا لو عدنا إلى القبائل البدائية الأولى لوجدناهم يخلطون بين الخير والشر دون أدنى معرفة بأبسط بديهيات التفكير، وهذا دليل على أن التجربة والخبرة الذاتية هي الأصل في تقويم الأخلاق، ثم تنتقل بعد ذلك عن طريق الوراثة والتربية إلى الأجيال القادمة[٧].

ومن المعلوم أن الضمير الذي يخاطبه القرآن ليس ذلك الضمير الفارغ غير المهذب المتروك على حالته البدائية

---

[١] دور كايم، إميل. "التربية الأخلاقية" ص ٧، ٨.

[٢] كريسون، أندريه. "تيارات الفكر الفلسفي" ص ٣٣٢.

[٣] الطويل، توفيق، "أسس الفلسفة" ص ١٩١.

[٤] بنروبي. "مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا" ص ١٥.

[٥] بريل، ليفي. "الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية" ص ٣٦.

[٦] الطويل، توفيق، "فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها" ص ٣٨٩.

[٧] بريل، ليفي. "فلسفة أوجست كونت" ص ٣٤٣.

دون مرشد، بل هو الضمير المستنير بتعاليم الكتاب والسنة، وهو ضمير إيجابي حُدِّدت فيه الواجبات والمحرمات ورُتِّبت بصورة تدعوه إلى فعل الواجب وترك القبيح، ومن خصائص ضمير كهذا أن يكون حاضرا في ذاته، ومهيأ للتناصح[١].

وأيا ما كان الأمر فإن دور كايم يرى أن الأخلاق تختلف باختلاف المجتمعات التي تخترعها وتفرضها على الأعضاء بقوة الضغط الاجتماعي، فإن لكل مجتمع أخلاقه التي هي مظهر أحواله، والدين عندهم تطور مع المجتمع، وهو أقوى مظاهر الحياة الاجتماعية وأهمها، فإليه ترجع الصور التي انتظمت بها المعارف الإنسانية، والقواعد الأخلاقية تمثل ضغطا وقهرا على الأفراد بصورة يشعرون أنهم مجبرون على الخضوع لها؛ حتى لا يتعرضوا لسخط المجتمع عليهم، وفي الوقت ذاته تحبب لهم فعل الخير وترغبهم فيه[٢].

هذا هو علم الأخلاق الواقعي الذي قالت به الفلسفة الوضعية، والسؤال الأهم هل كُتِبَ لهذا العلم أن يتطور ويعمل على حل المشكلات الأخلاقية؟؟

الحق أن العلم التجريبي عاجز عن توجيه الإنسان وتنظيم المجتمع، وعن توضيح معاني الخير والشر، وعن وضع مبادئ السلوك الإنساني؛ لأنه لا يستطيع أن يقف على كنه النفس الإنسانية وعلى معرفة قواها وما يصلح لها، وما يؤدي إلى سعادتها؛ لأنه يعالج مسائل محسوسة، والنفس ليست مادية ولا محسوسة، فالأخلاق معيارية لا يقتصر أمرها على ما هو كائن، بل تتعدى إلى رسم ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان، وتحديد الطريق إليه، فكيف يصلح العلم التجريبي لوضع أسس الأخلاق ومبادئ القيم التي تقوم عليها المجتمعات؟ وكيف تكون الأخلاق المعيارية علما وضعيا وهما مختلفان موضوعا وغاية؟[٣].

وهذا ما أدركه فلاسفة المدرسة الوضعية؛ إذ يقرر «البير بابيه»[٤] –أستاذ الاجتماع والأخلاق بجامعة السوربون– أن الجهود التي بذلت لتكوين علم أخلاقي وضعي قد أخفقت؛ لأنه لا يمكن أن يطبق المنهج التجريبي على ما هو معياري أو تشريعي[٥]، وإذا كانت الأخلاق العلمية قد عجزت عن حل مشكلات الحياة الأخلاقية فإن الفلسفة الوضعية قد وقعت في كثير من الأخطاء في ميدان الأخلاق وأهمها أنها سوَّتْ بين دراسة الظاهرة الطبيعية ودراسة الظاهرة الأخلاقية، لكن الدراسات الحديثة في العلوم الإنسانية كشفت عن صعوبات عديدة تعترض تطبيق المنهج التجريبي على الدراسات الإنسانية بصفة عامة، وعلى الأخلاق بصفة خاصة، ومنها أن موضوع البحث في العلوم الإنسانية هو الإنسان، وما يصدر عنه من أفعال، أما في العلوم المادية فهي الطبيعة، ويستحيل قياس الظواهر الطبيعية على الظواهر الإنسانية؛ لتعقد الظواهر الإنسانية المتعلقة بسلوك الإنسان وأخلاقه؛ لأنها تتعلق بعوامل داخل الإنسان، وتقوم في شعوره، وترتبط بوجدانه بخلاف الظواهر الطبيعية التي تخضع للمشاهدة والملاحظة[٦].

ويستحيل التوصل إلى قوانين مادية تحدد سلوك الإنسان؛ لأن الإنسان يتصرف في أفعاله بإرادته، والله تعالى وهبه العقل ليميز به بين الصواب والخطأ، فليست أفعاله آلية جبرية، أما الظاهرة الطبيعية فهي حتمية، ولو توفرت

---

[١] دراز، محمد. "دستور الأخلاق في القرآن" ص ١٢٧.

[٢] كرم، يوسف. "تاريخ الفلسفة الحديثة" ص ٤٣٤.

[٣] عتمان، محمود. "الفكر المادي الحديث" ص ٩٧.

[٤] ألبير بابيه: ولد في مدينة ليون بفرنسا سنة ١٨٨٠م، وانضم إلى المدرسة الاجتماعية التي كان يشرف عليها إميل دوركايم في السنوات الأولى من القرن العشرين، من مؤلفاته: الأخلاق العلمية، وفكرة الخير، والأخلاق واللغة، ينظر: أمين، عثمان. مقدمة كتاب "دفاع عن العلم" ص ١٥ وما يليها.

[٥] بابيه، ألبير، "دفاع عن العلم" ص ٦٣.

[٦] قنصوة، صلاح. "الموضوعية في العلوم الإنسانية" ص ٥٢.

ظروف معينة نتجت عنها نتائج خاصة لأدت إلى نفس النتائج[١].

وكونت نفسه لم يستطع التحرر تماما من أساليب التفكير الديني والفلسفي، فبدلا من أن يبتدأ بدراسة الحالات الجزئية ليصل منها إلى القوانين العامة، كما هو الحال في المنهج الاستقرائي، فإنه وضع القوانين والنظريات العامة ثم حاول أن يفسر على ضوئها حقائق الاجتماع وسائر العلوم الإنسانية، وقد أرجع كونت تطور الظواهر الاجتماعية إلى تطور التفكير مع أن تطور التفكير ذاته ليس إلا مظهرا من مظاهر تطور المجتمع ولا يعدّ هو نفسه سببا لهذا التطور، ثم إن كونت وضع قانونا يسري على جميع المجتمعات بلا استثناء مع أن الملاحظ هو وجود مجتمعات جزئية تختلف عن بعضها في بنيانها وأنظمتها وطبيعتها[٢].

الخاتمة وأذكر فيها أهم نتائج البحث وهي:

- لقد اغترت الواقعية بالمنهج التجريبي عندما أوصلهم إلى نتائج علمية كثيرة، وكان سببا في تقدمهم، فظنت أن في إمكانه أن يتناول كل ما في الوجود، وأن يخضع لسلطانه السنن الإلهية، وأنه قادر على أن يحني أمام التجربة كل المعنويات والغيبيات كما حنى الحسيات، ولذلك وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الإلحاد.
- المعرفة اليقينية في الفلسفة الواقعية لا تتأتى للإنسان إلا عن طريق العلوم التجريبية؛ لأن الفكر الإنساني عندهم لا يدرك سوى الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين.
- لم تبدأ البشرية بالفيتشية كما يدعي كونت في قانون الحالات الثلاث، بل بدأت بالتوحيد الخالص لله رب العالمين؛ لأن أبا البشر جميعا كان نبيا من عند الله تعالى.
- لقد سوَّت الواقعية بين الظاهرة الطبيعية وغيرها من الظواهر الأخلاقية والإنسانية؛ ورأت أن الأخلاق ينبغي أن تقوم على أساس العلم التجريبي لا على أساس الدين؛ لأنه سمة المجتمعات المتخلفة، لكن الواقعية وغيرها من الفلسفات المادية الحديثة اضطرت إلى التخلي عن فكرة بناء علم أخلاق يقيني محدد المعالم تقتصر مهمته على ملاحظة الظواهر التجريبية؛ لأن الأخلاق معيارية لا يقتصر أمرها على ما هو كائن، بل تتعدى ذلك إلى رسم ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان.
- لقد تعثرت الفلسفة الواقعية في حل المشكلات السوسيولجية عندما حاولت تطبيق المناهج المادية التجريبية على مبادئ علم الاجتماع؛ لأنها ظواهر إنسانية معقدة، وكل ما استطاع فلاسفة الوضعية أن يصلوا إليه هو أن التقدم محفوف بالصعاب والمخاطر، وهم وإن لم يستطيعوا حتى الآن الوصول إلى قوانين دقيقة تعمل على قياس الظواهر الاجتماعية، فإنهم يضعون آمالهم في المستقبل الذي قد يأتي بتقدم علمي يمكنهم من التغلب على هذه الصعاب.
- لقد حاولت الفلسفة الواقعية إبعاد اللاهوت والميتافيزيقا عن توجيه الإنسان، وتطبيق المذهب الواقعي ليحل محلهما في تكوين المعرفة الإنسانية وتوجيه الإنسان لكنها سقطت في الدين والميتافيزيقا بدعوة الناس لعبادة الإنسانية.

المراجع

القرآن الكريم

إسماعيل، قباري. علم الاجتماع والأيديولوجيات، المكتب العربي الحديث، القاهرة ١٩٧٩م.

[١] حسين، عبد الباسط. "أصول البحث الاجتماعي" ص ١٠١.

[٢] حسين، عبد الباسط. "أصول البحث الاجتماعي" ص ٨٣.

إسماعيل، قباري. علم الاجتماع والفلسفة، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٢م.

إسماعيل، قباري. قضايا علم الاجتماع المعاصر، منشأة المعارف، الاسكندرية.

الأعظمي، محمد. دراسات في اليهودية والمسيحية، مكتبة الرشد الرياض.

أمين، أحمد. قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م.

أمين، أحمد. قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي ٢٠١٨م.

أيكن، هنري. عصر الأيدولوجية ترجمة د/ فؤاد زكريا، مراجعة د/عبد الرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية

بابيه، ألبير. دفاع عن العلم، تعريب د/ عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥م.

بدوي، عبد الرحمن ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة

بدوي، عبد الرحمن. خريف الفكر اليوناني، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ١٩٧٩م.

برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الدار المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

بريل، ليفي فلسفة أوجست كونت، ترجمة د/ محمود قاسم، د/ السيد محمد البدوي، مكتبة الأنجلو المصرية

بريل، ليفي. الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية، ترجمة د/ محمود قاسم، مراجعة د/ السيد البدوي، مطبعة مصطفى الحلبي.

بنروبي. مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤م.

البهي، محمد. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، الطبعة العاشرة.

بوترو، إميل. العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهواني، طبعة آفاق الأولى، ٢٠٢٠.

بوركهارت، ياكوب. حضارة عصر النهضة في إيطاليا، ترجمة عبد العزيز جاويد، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، ٢٠٠٥م

حسين، عبد الباسط. أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، ١٩٩٠م.

الخشاب، مصطفى. أوجست كونت، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٦م.

دراز، محمد. الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، الكويت

دراز، محمد. دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م.

دور كايم، أميل. التربية الأخلاقية ترجمة السيد محمد بدوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٥م.

ديورانت، ول. قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة د/ فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٨م.

الرازي، قطب الدين. تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية لنجم الدين علي الكاتبي القزويني، المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٧هـ

رياض، محمد، وعبد الرسول كوثر. "أفريقيا: دراسة لمقوِّمات القارَّة" مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧م.

ريشنباخ، هانز، نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة د/ فؤاد زكريا، مؤسسة هنداوي ٢٠٢م

زاهر، رفقي. أعلام الفلسفة الحديثة، دار الطباعة المحمدية.

زقزوق، محمود، المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، دار المعارف القاهرة ١٩٩٨م.

زقزوق، محمود، تمهيد للفلسفة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٤م.

سبنلة، جان، الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه، ترجمة تيسير شيخ الأرض، مراجعة د/ أسعد درقاوي، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر، العراق، ٢٠٢٢م.

ستيس، ولتر. تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م.

صالح، سعد الدين. قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية، مطبوعات جامعة الإمارات ١٩٩٨م.

الطويل، توفيق، أسس الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة.

الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية، ١٩٧٩م.

الطويل، توفيق، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، مكتبة الآداب بمصر.

عبد المعطي، عبد الباسط. اتجاهات نظرية معاصرة في علم الاجتماع، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٨١م.

عتمان، محمود. الفكر المادي الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية

العقاد، عباس. الله، مؤسسة هنداوي ٢٠١٦م.

العقاد، عباس. دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م.

العقاد، عباس. عقائد المفكرين في القرن العشرين، مؤسسة هنداوي ٢٠١٤م.

غلاب، محمد. المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٨م.

غلاب، محمد. المعرفة عند مفكري المسلمين، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

فال، جون. الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

فروخ، عمر. أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية، مكتبة ميمنة، بيروت، ١٩٥٢م.

قاسم، محمود. المنطق الحديث، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٣م.

قنصوة، صلاح. الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة، ٢٠٠٧م.

كرم، يوسف. الطبيعة وما بعد الطبيعة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢م.

كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، مؤسسة هنداوي ٢٠١٤م.

كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الحديثة، مكتبة الدراسات الفلسفية.

كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م.

كرم، يوسف. دروس في الفلسفة، عالم الأدب، بيروت، ٢٠١٦م.

كريسون، أندريه. الأخلاق في الفلسفة الحديثة، ترجمة د/عبد الحليم محمود، د/أبو بكر ذكري دار إحياء الكتب العربية

كريسون، أندريه. تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث، ترجمة نهاد رضا، منشورات بحر المتوسط، بيروت ١٩٨٢.

كلي رايت، وليم. تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، التنوير للطباعة والنشر، ٢٠١٠م.

كولبه، أزفلد. المدخل إلى الفلسفة، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي، عالم الأدب، بيروت ٢٠١٦م.

لطفي، عبد الحميد. علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٧م.

لوكور، دومينيك. قانون الحالات الثلاث في فلسفة أوغست كونت، ترجمة سلام الوسوف، بحث مستل من مجلة آفاق المعرفة ٢٠٢٢م.

محمود، زكي. نظرية المعرفة، مطابع وزارة الإرشاد القومي، القاهرة ١٩٥٦م.

المسير، محمد. المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي، مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٤م.

مطر، أميرة. الفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨م.

النشار، على. نشأة الدين، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٤٨م.

نعيم، محمد. وحجازي، عوض الله. في الفلسفة الإسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٩م.

واصف، أمين. أصول الفلسفة، مطبعة المعارف، ١٩٢٢م.